العاشر من يوليو

رواية

معتز هيثم كرم

كانت شمس المنصورة تتوارى خجولاً خلف مياه النيل المتلاطمة عند حافة "المشاية"، تُلقي بظلالها الدافئة على الطرقات المزدحمة، بينما كان صفيح الحافلات وأبواق السيارات يعزفان ملحمة الحياة اليومية المعتادة. لكن في قلب تلك المدينة التي لا تنام، كان هناك

بيتٌ صريح الدفء، تفوح من نوافذه رائحة الشاي بالنعناع وصوت ضحكات صغارٍ تشبه معزوفة نادرة.

كان رامي يقف أمام مرآة الصالون، يضبط رابطة عنقه بهدوء، وعيناه ترتقبان انعكاس راندا وهي تضع اللمسات الأخيرة على مائدة العشاء.

عشر سنوات... لم تكن مجرد رقماً في رزنامة العمر، بل كانت بناءً شامخاً أُقيم حجراً بحجر. عشر سنوات منذ أن التقاها أول مرة على أبواب جامعة المنصورة، يوم كانت الضجة تمشي على قدمين، وكانت هي بؤرة الهدوء الوحيدة في هذا العالم. تزوجا وعاشا أياماً حلوة ومُرة، تقاسما الرغيف والضحكة، وغرسَا في أرض حياتهما أربعة أزهار: "عمر" الأكبر ذو العيون الذكية، والتأمت حوله "جنى" بضحكتها الصافية، ثم التوأم "حمزة" و"ياسين" اللذين يملآن البيت صخباً لا ينتظر غداً.

أقبلت راندا نحوه، ابتسامتها الرقيقة التي تتقن مسح تعب الأيام ترتسم على وجهها، وقالت بصوتها الدافئ:

سرحان في إيه يا رامي؟ العشا يبرد.. والأولاد جننوني علشان يستنوك.

التفت إليها رامي، وطبع قبلة خفيفة على جبهتها وهو يبتسم:

ولا حاجة يا راندا.. كنت ببتسم بس على الأيام.. 10 سنين عدوا كأنهم ثانية. ساعات بصفن وأقول: ربنا يدمها علينا نعمة ويخليكي ليا وللأولاد.

ردت عليه بنظرة امتنان ملأى بالثقة الصافية، الثقة التي لا يتطرق إليها شك:

طول ما إحنا مع بعض، مفيش حاجة تقرر تكسرنا يا رامي. البيت ده اتبنى على حب حقيقي.

انضم رامي إلى المائدة وسط صياح الصغار وتنافسهم على الجلوس بجانبه. كانت اللحظة تبدو وكأنها لقطة مثبتة في إطار فضي، لوحة منزلية كلاسيكية كُتب عليها: "السعادة المطلقة". لم يكن ينقصهم شيء، وكانت الحياة تنساب هادئة، هادئة جداً... بالقدر الذي يسبق أي عاصفة مدمرة.

في تلك الليلة، وبعد أن نام الصغار واستكان البيت في حضن السكون، كان رامي يجلس في شرفة الشقة يطالع أنوار المشاية المنعكسة على النيل. هاتف المحمول في يده أضاء فجأة بإشعار رسالة جديدة.

لم تكن الرسالة من العمل، ولا من صديق قديم. كانت من رقم مكتوب بأسلوبٍ ملفت، وتحمل نبرة لم يعتدها رامي في حياته الرتيبة الهادئة:

مساء الخير يا أستاذ رامي.. الملفات اللي طلبتها جاهزة، وبكرة مستنياك في الشركة علشان نراجعها.. - منال.

تأمل رامي الاسم لثوانٍ. "منال"... الموظفة الجديدة التي التحقت بالشركة منذ أسابيع قليلة. امرأة تتنفس ثقة نرجسية، عينان تعرفان كيف تقتنصان الهدف، وحضور لا يمر هباءً في أي مكان تطأه قدمها.

ابتسم رامي ابتسامة باهتة، وأغلق شاشة الهاتف، ودون أن يدري، كانت تلك الرسالة البسيطة هي أول حجر يُزاح من السد، السد الذي يحمي حبه القديم وبيته الدافيء، ليفتح الباب أمام أولى قطرات السيول التي ستجرف كل شيء مستقبلاً.

نظر رامي إلى حديقة المنزل في العتمة، وأنفاسه تتصاعد ببطء. لم يكن يعلم أن هذه الحياة التي يحتمى بها اليوم، ستصبح بعد سنوات مجرد أثر بعد عين، وأن التاريخ سينتهي به وهو يقف في نفس هذه المدينة، تحت مقصلة العاشر من يوليو

بدأت الأيام تتسرب من بين أصابع رامي بسرعة لم يعتدها. كان مقر الشركة في حي "توريل" الراق بالمنصورة يضج بالحركة، لكن عقله لم يعد يستوعب سوى تلك المساحة الضيقة التي تشغلها منال

لم تكن منال تملك هدوء راندا ولا طيبتها الشديدة، بل كانت طاقة متفجرة من الحضور النرجسي والاهتمام المباشر. كانت تعرف كيف تضع لمساتها الناعمة في تفاصيل يومه: كوب القهوة المفضّل لديه يُصبح على مكتبه قبل وصوله، الملفات مُرتبة بدقة، والأهم من ذلك... نظراتها التي تُشعر رامي بأنه ليس مجرد مدير في شركة، بل بطل حياتها المطلق.

في أحد أيام الأحد، بينما كانت أمطار الخريف الخفيفة تغسل زجاج مكتبه الشفاف، دخلت منال وهي تحمل ملفاً أسود. أغلقت الباب خلفها بهدوء، واقتربت من مكتبه بخطوات واثقة، يُرافقها عبير عطرها القوي الذي أخذ يزاحم هواء الغرفة.

وضعت الملف أمامه، لكنها لم تبتعد. أمالت رأسها قليلاً وقالت بنبرة خفيضة تحمل الكثير من الدلال:

أستاذ رامي.. ملاحظ إنك مجهد بقالك فترة؟ أسلوب حياتك ده ظلم لواحد بذكائك وطاقتك.

رفع رامي رأسه إليها، محاولاً الحفاظ على رسمية الحديث:

المسؤولية كبيرة يا منال.. بيت وأربعة أطفال وشغل، طبيعي أكون مجهد

ابتسمت منال ابتسامة جانبية ساخرة، ثم قالت وهي تتكئ بيديها على أطراف المكتب:

المسؤولية مش معناه إن الإنسان يدفن شبابه ونفسه في روتين مبيخلصش. أنت استسلمت للراحة والأمان على حساب شغفك.. راندا ست طيبة ومحترمة، بس أنت تستاهل حياة فيها إثارة وتجدد مش مجرد وجبات دافية ونوم بدري

سقط اسمها من بين شفتيها كشرارة. استشعر رامي وخزة في ضميره، حاول أن يدافع عن بيته:

راندا أصل البيت يا منال.. 10 سنين استحملتني فيهم وشالت كل حاجة

اقتربت منه أكثر، وتحدثت بصوت شبه همس، فيه سحر غريب يربك حواسه:

العشر سنين طالما بقوا روتين يقتل الروح، يبقوا سجن مش أصل.. أنت محتاج اللي يفهمك مش بس اللي يخدمك.. محتاج واحدة تعيش عشانك أنت، مش عشان البيت والأولاد

لم يرتد رد رامي القاطع كما ينبغي. ساد الصمت لثوانٍ كانت كفيلة بتثبيت الوهم في عقله. منال لم تكن تُهاجم راندا بشكلٍ مباشر، بل كانت تُحجم دورها وتجعل رامي يرى حياته الهادئة مجرد سجن أنيق

وفي المساء، عندما عاد رامي إلى شقته بالمنصورة، كان البيت يضج بصراخ "حمزة" و"ياسين" أثناء أدائهما للواجبات المدرسية، بينما راندا تتنقل في المطبخ بملابس منزلية بسيطة، وشعرها مرفوع بعفوية.

استقبلته برفق:

حمد لله على السلامة يا رامي.. تعبت في الشغل النهاردة؟

نظر رامي إليها، ولأول مرة منذ عشر سنوات، لم يَر الحب أو الدفء... بل رأى المقارنة الظالمة التي زرعتها منال في عقله صباحاً. رأى امرأة أرهقها البيت وأنستها أنثويتها، ورأى نفسه مظلوماً في هذه العيشة البسيطة.

رد ببرود لم تعهده راندا منه:

تعبان ومحتاج هدوء يا راندا.. هو البيت ده مبيفضاش من الدوشة أبداً؟

توقفت راندا مكانها، ونظرت إليه بدهشة وصدمة خفيفة. لم تكن هذه نبرته، ولا كانت هذه عيناه التي عرفتها لعشر سنوات.

خرج رامي إلى الشرفة يهرب من نظراتها، وأخرج هاتفه. كتب رسالة قصيرة لمنال:

"عندك حق يا منال.. أنا محتاج أعيش".

وفي تلك اللحظة، كانت أولى ركائز بيته السعيد تتشقق، دون أن يدري أن خروجه من هذا الحصن سيكون خطوته الأولى نحو الجحيم.

توالت الأسابيع، وأصبحت تلك المساحة الضيقة بين رامي وراندا تتسع بسرعة مخيفة، حتى تحولت إلى هوية سحيقة لا يمكن عبورها. كان رامي يبتعد شيئاً فشيئاً، يعود إلى المنزل متأخراً، وغالباً ما يتذرع باجتماعات عمل طارئة وضغط المشاريع في توريل.

في المقابل، كانت منال تحكم قبضتها على عقله وقلبه بذكاء شديد. لم تعد تسلّمه الملفات في مكتبه فحسب، بل بدأت ترافقه في المقاهي المطيرة على ضفاف النيل. كانت تمنحه الشغف المزيف الذي توهم أنه يفتقده، تحيطه باهتمام دقيق بكل تفاصيله الصغيرة، بينما تزين له فكرة أن تعاسته الحالية سببها استسلامه للحب القديم.

في ليلة شتوية شديدة البرودة، كان السكون يخيم على شقة رامي. جلس "عمر" و"جنى" في غرفتهما يراجعان دروسهما، بينما غرق التوأم "حمزة" و"ياسين" في نوم عميق.

خرجت راندا من المطبخ وهي تحمل كوباً من الشاي بالنعناع، وضعتها على المائدة الصغيرة أمام رامي، وجلست أمامه وهدوء مريب يلف ملامحها. كانت وجهها شاحباً، وتحت عينيها هالات سوداء تجسد ثقل الأيام الأخيرة.

نظر إليها رامي بضيق مكتوم دون أن يترك هاتفه من يده، وقال بنبرة جافة:

خير يا راندا؟ في حاجة مش مظبوطة ولا إيه؟

نظرت راندا في عينيه مباشرة، ولأول مرة منذ سنوات، لم تكن عيناها تنضحان بالخضوع أو التسامح، بل بمرارة عميقة وقوة حزينة:

أنا اللي بسألك يا رامي.. إيه اللي مش مظبوط؟ بقالك شهرين مش معانا. جسمك بس اللي بيدخل البيت ده، لكن عقلك وقلبك في مكان تاني خالص

أغلق رامي الشاشة بحدة ووضع الهاتف على الطاولة:

رجعتي تاني لنفس النغمة؟ أنا بشتغل شقا وتعب علشانكم وعلشان الأولاد.. المفروض تقدري الضغط اللي عليا بدل النكد ده

ابتسمت راندا ابتسامة ساخرة ومليئة بالوجع، وقالت وهي تشير إلى الشقة حولهما:

الضغط بيخلي الراجل يرجع لبيته يدور على الراحة، مش يهرب منه! الضغط مبيخليش الراجل يتغير 180 درجة على مراته اللي عاشت معاه 10 سنين في المرة قبل الحلوة! رامي.. أنت بتتغير، وبتبعد.. وفي حد تاني دخل حياتك، صح؟

صمت رامي لثوانٍ، واستشعر وخزة ارتباك لم يظهرها. حاول الهجوم كي يداري موقفه:

أنتي بتهرجي؟ بتشكي فيا بعد العمر ده كله؟ بدل ما تهتمي بنفسك وبيا وبشكلك، جاية ترمي عليا اتهامات وخيالات؟

سقطت كلمة "تهتمي بنفسك" كالصفعة على وجه راندا. تلألأت الدموع في عينيها، لكنها أبت أن تسقط. وقفت وقالت بصوت متهدج:

أنا قديت عمري كله وأنا بهتم بيك وبأولادك الأربعة يا رامي.. كنت فاكرة إن الحب اللي بيننا سد مبيتكسرش، لكن واضح إن السد ده كان من قش. لو في حاجة عايز تقولها، قولها بصراحة.. لكن متجرحش كرامتي وتتهمني بالتقصير علشان تبرر لنفسك اللي بتعمله

تركت الغرفة ومشت ببطء نحو غرفة الأطفال، تاركة رامي يخوض صراعاً داخلياً عاتياً. كان يدرك في أعماقه أن كل كلمة قالتها هي الحقيقة، وأن راندا لم تقصر في حقه يوماً، لكن صوت منال

النرجسي كان يتردد في أذنيه: "أنت تستاهل حياة أفضل.. متظلمش نفسك عشان الذكريات

:أنسحب رامي إلى الشرفة، وأمسك بهاتفه ليجد رسالة من منال

فكرت في كلامنا النهاردة؟ أنت مستني إيه عشان تأخد خطوة وترجع تعيش حياتك صح؟

ضغط رامي على الهاتف بقوة، وتسللت قسوة جديدة إلى قلبه. اتخذ القرار في تلك الليلة المظلمة؛ قرر أن يضحي بـ 10 سنوات من الاستقرار والحب الصادق، من أجل سراب يظنه السعادة

لم تكن شمس الصباح تحمل أي دفء، بل كانت خيوطها الذهبية تنعكس على مياه النيل ببرودٍ يماثل البرود الذي غلف قلب رامي. كان قرار التخلي قد نضج في عقله تماماً، يغذيه همس منال المستمر ضغط إدارة البيت وتضخيمها لكل زلة بسيطة تقع فيها راندا .والأطفال الأربعة

جلس رامي في مكتبه بتوريل، ينظر إلى قسيمة زواجه من راندا المخبأة في درج مكتبه. عشر سنوات تجمعت في ورقة واحدة، كان .على وشك أن يطويها بيده دون رحمة

دخلت منال الغرفة دون أن تطرق الباب، خطواتها الواثقة وعطرها القوي قطعا حبل أفكاره. نظرت إلى الورقة في يده، ثم ابتسمت ابتسامة هادئة وقالت بنبرة تحمل من المكر قدر ما تحمل من السحر:

لسه بتردد يا رامي؟ الشجاعة مش إنك تصبر على حياة ميتة.. الشجاعة إنك تنهيها وتبدأ من جديد

رفع رامي عينيه إليها، وكان في عينيه إرهاق رجل يخوض حرباً مع ضميره:

الخطوة مش سهلة يا منال.. راندا أم أولادي، والأولاد متعلقين بيا جداً

جلست منال على حافة المكتب، واقتربت منه بأسلوب نرجسي مدروس:

راندا هتاخد حقوقها كاملة، والأولاد مش هيترقوا في الشارع.. أنت مش بتتخلى عن أولادك، أنت بتتخلى عن حياة خلاص انتهت بالنسبة لك. أنت عايش مرة واحدة يا رامي.. تحب تقضيها في دور الضحية، ولا تعيشها معايا زي ما تحلم؟

كانت كلماتها كالمخدر الذي يُغيب العقل. أغلق رامي الدرج بقوة، ونظر إليها بجمود وقال:

النهاردة كل حاجة هتنتهي

في المساء، كان الهدوء يخيم على الشقة بشكل مريب. كان الأطفال الأربعة عند بيت جدتهم بناءً على طلب رامي، وكأنه يجهز المسرح لإسدال الستار على مسرحية طال أمدها.

كانت راندا تجلس في الصالة، تصنع بعض الترتيبات البسيطة، وعندما رأت رامي يدخل وعيناه خاليتان من أي تعبير عاطفي، أدركت بفطرة المرأة أن هذه الليلة ليست كغيرها.

جلس رامي أمامه على الأريكة، ولم ينتظر طويلاً، بل أطلق رصاصة الكلام مباشرة دون تمهيد:

راندا.. إحنا لازم ننفصل

ساد صمت قاطع في الغرفة. لم تصرخ راندا، ولم تسقط دمعة واحدة من عينيها في تلك اللحظة. اتسعت عينها بفزعة صامتة، ثم استجمعت شتات نفسها وقالت بصوت متهدج، خفيض لكنه كالزلزال:

تنفصل؟ بعد 10 سنين يا رامي؟ بعد أربع أطفال؟ علشان مين؟ علشان الموظفة الجديدة؟

وقف رامي واتجه نحو الشرفة يتهرب من مواجهة عينيها:

علشان إحنا مقتنعناش ينفع نكمل سوى. الحياة بيننا بقت جافة، وأنا مش قادر أعيش في الروتين ده اكتر من كده. حقوقك كاملة هتوصلك، والشقة دي هتفضل ليكي وللأولاد.. وأنا هتكفل بكل مصاريفهم

قامت راندا ووقفت خلفه، وكانت كلماتها تخرج كالحمم البركانية من قلب مجروح:

أنا مش فارق معايا الفلوس ولا الشقة يا رامي! أنا فارق معايا العمر اللي ضاع.. الحب اللي بنيناه.. الأطفال اللي مالهمش ذنب يتدمر بيتهم! أنت بتبيعنا علشان نـزوة؟ علشان واحدة ضحكت عليك بكلمتين؟

التفت إليها رامي وقساوة وجهه تزداد:

محدش ضحك عليا! أنا اخترت نفسي.. اخترت أعيش! ومفيش داعي للمشاكل والدراما، المأذون هيوصلك أوراقك الأسبوع الجاي

نظرت إليه راندا بذهول، وكأنها ترى شخصاً غريباً لم تقابله من قبل. أومأت برأسها ببطء، والدموع أخيرًا وجدت طريقها على خدها، لكنها قالت بكبرياء جريح:

أنت مش بتبيعني أنا يا رامي.. أنت بتبيع نفسك وبتبيع أولادك. واليوم اللي هتندم فيه، مش هتلاقي حد يمد لك إيده.. افتكر كلامي ده كويس

خرج رامي من الشقة وأغلق الباب خلفه بقوة، تاركاً راندا في ظلام الصالة تبكي حب سنواتها العشر، دون أن يدرك أن تلك اللحظة كانت نقطة بداية العد العكسي لمأساة ستنتهي بالدم

مر الأسبوع كأنه أفقٌ ممتد من الضباب الثقيل. كانت مدينة المنصورة تصطخب كعادتها، لكن في الشقة المطلة على النيل، كانت الأيام تتآكل في صمت قاتل.

جلس رامي في سيارته المتوقفة أمام المحكمة، يمسك بظرف أبيض سميك، بداخله الأوراق الرسمية التي وثّقت طلاقه من راندا. رسمياً وقانونياً، انتهت رحلة العشر سنوات بضغطة قلم ورسم طابع تموين.

كان يديه ترتجفان قليلاً وهو يطالع القسيمة. صورة راندا المطبوعة على إحدى الأوراق القديمة كانت تنظر إليه بنقاءٍ غريب، وكأنها تذكره باليوم الأول الذي التقيا فيه بأسوار الجامعة. نفض رامي هذه الأفكار عن عقله بحدة، وهز رأسه متمتماً: "خلاص.. ده القرار الصح، لازم أبدأ صفحة جديدة"

قام بالاتصال بمنال. لم تكد الرنة الأولى تنتهي حتى جاءه صوتها الواثق، المحمل بنبرة انتصار خفية:

خلصت كل حاجة يا رامي؟

أخذ رامي نفساً عميقاً ثم قال:

أيوه يا منال.. الطلاق تم رسمياً النهاردة. وراندا أخدت كل حاجتها ونقلت مع الأولاد للشقة الثانية

جاءته ضحكتها الناعمة عبر الهاتف، ضحكة تحمل السيطرة والامتلاك:

مبروك يا حبيبي.. مبروك بداية حياتك الحقيقية. أنا مستنياك في الكافيه، لازم نحتفل ونرتب خطواتنا اللي جاية

في الوقت نفسه، كانت راندا تقف في صالة شقتها الجديدة، تحيط بها الصناديق وقطع الأثاث المبعثرة. كان الأطفال الأربعة يجلسون في الزاوية؛ "عمر" صاحب السنين العشر كان يلتف بذراعيه حول شقيقته "جنى"، ووجهه يحمل نظرة حزن ووعي يفوق سنه بكثير، بينما كان التوأم "حمزة" و"ياسين" يلعبان بلعبهما دون أن يستوعبا حجم الكارثة التي حلت بعالمهم الصغير.

اقتربت راندا من "عمر"، ومسحت على شعره بحنان، وهي تحاول أن تخفي انكسار صوتها:

عمر.. حبيبي، مالك سرحان في إيه؟

رفع "عمر" عينيه الشبيهتين بعيني أبيه، وقال بصوت خفيض خنقته العبرة:

هو بابا مش هيعيش معانا تاني يا بابا؟ هو سابنا خلاص علشان الست الثانية؟

نزلت الكلمات كالسياط على قلب راندا. احتضنته بقوة ودموعها تسيل على كتفه، ثم حست رأسها بالرفض وقالت بكبرياء أم تحاول حماية أولادها:

بابا بيحبكم يا عمر.. ومحدش يقدر يأخد مكانكم عنده. بس ساعات الكبار بيختلفوا. المهم عندي إنكم تكبروا وتكونوا أحسن ناس في الدنيا.. وأنا جنبكم ومش هسيبكم أبداً

كانت راندا تعرف في أعماقها أن الأيام القادمة لن تكون سهلة، وأن أطفالها سيحملون جرح غياب أبيهم، لكنها قررت أن تصمد وتكرس حياتها لهم بالكامل.

في مساء نفس اليوم، كان رامي يبتسم وهو يجلس بجانب منال في أحد المطاعم المطلة على النيل بالمنصورة. كانت تحيطه باهتمام كامل، تخطط لشكل بيتهما الجديد، ولنوع الأثاث، ولتفاصيل زفافهما القريب.

أمسكت منال بيده وقالت بعينين تلمعان بالنرجسية:

من بكرة هنسافر القاهرة نشتري شبكة يليق بيا وبيك يا رامي.. أنا عايزة كل الناس تعرف إن رامي بقى ملكي أنا وبس

ابتسم رامي ووافقها على كل ما طلبت، محاولاً أن يتغاضى عن صدى صرخات ضميره الخافتة. كان يعتقد أنه بإغلاق باب بيته القديم قد نجح في الهروب من ماضيه، دون أن يدرك أن خطواته نحو منال كانت أولى خطواته في فخ أعدته الغيرة، وفصل جديد من الرواية سيكتب بدماء الأبرياء

مضت الأشهر الأولى من زواج رامي ومنال في خيلولة زواياها محاطة ببريق مبهر؛ زفاف أنيق في أحد فنادق المنصورة، وسفر وشغف استهلك في بدايته كل أثر للذنب في نفس رامي. لكن السراب، مهما بدا متلألئاً من بعيد، لا يروي عطشاً إذا ما اقترب المرء منه.

استقر الزوجان في شقة جديدة بحي "المشاية"، شقة أثثتها منال على ذوقها الصاخب، أثاث حديث، ألوان باردة، وتفاصيل تخلو تماماً من روح الدفء التي كانت تعبق في بيت رامي القديم.

في مساء يوم خريفي، كان رامي يجلس في الصالة يراجع بعض الأوراق، بينما كانت منال تقف أمام المرآة تتزين للخروج. التفتت إليه وقالت بنبرة لا تخلوا من الأمر:

رامي.. بكرة الجمعة، هنطلع نتعشى في بورسعيد زي ما اتفقنا، صح؟

رفع رامي رأسه إليها، وظلت نظراته معلقة على الشاشة لحظة قبل أن يقول بتردد:

منال.. بكرة الجمعة ده الميعاد الأسبوعي اللي بشوف فيه ولادي. أنا وعدت عمر وحمزة وياسين وجنى إني هاخدهم الملاهي ونقضي اليوم سوا

توقفت حركة يد منال وهي تضع حمام الزيت على شعرها. التفتت إليه وعيناها تشتعلان ببريق غضب نرجسي مفاجئ:

ولادك؟ تاني يا رامي؟ إحنا بقالنا أربع شهور متجوزين، ومفيش ويك إند بيعدي إلا لما تطلعلي بحجة الأولاد! هي راندا مش ملاحقاهم مصاريف واهتمام؟ لازم أنت كمان تحرمني من يومي عشانهم؟

زفر رامي بضيق ووقف مواجهاً لها:

منال! دول أطفالي! أربعة أطفال مالهمش أي ذنب في اللي حصل بيني وبين أمهم! أنا اتطلقت من راندا، متطلقتش من ولادي! حقهم عليا أشوفهم وأهتم بيهم

اقتربت منه منال بخطوات بطيئة، وعيناها تضيقان بمكر:

ولا هي راندا اللي بتستغل الأولاد عشان تفضل معلقة رجلك في حياتها القديمة؟ رامي.. أنا فاهمة شغل الستات ده كويس. هي

بتستعملهم كارت عشان تفضل في بالك، وأنت زي المغفل بتجري وراها

سقطت كلماتها كالصفعة على وجهه. نفض يده بحدة وقال بصوت مرتفع لأول مرة منذ زواجهما:

راندا مبتردش عليا أصلاً غير في الحدود الضيقة جداً وعن طريق رسائل! راندا أكرم وأكبر بكتير من الأسلوب ده! متخليش غيرتك تعميكي عن حدود ربنا والأصول

جمُدت ملامح منال، واستحالت نبرتها إلى جفاف مرعب. لم تبكِ ولم تصرخ، بل قالت ببرود يقطر خطورة:

ماشي يا رامي.. اهتك بيهم زي ما أنت عايز. بس افتكر كويس.. اللي بيحاول يمسك عصايتين من النص، في الآخر العصاية بتكسر ظهره. وأنا مش هقبل أكون خيار تاني في حياتك أبداً

تركت الغرفة وأغلقت الباب خلفها بحدة هزت أركان الشقة.

جلس رامي على حافة الأريكة، ووضع رأسه بين يديه. ولأول مرة منذ طلاقه، تسللت برودة قارسة إلى صدروه. نظر إلى أركان البيت الزجاجي الفاخر حوله، فشعر بأنه يتنفس هواءً مسموماً.

أخرج هاتفه، وفتح صورة قديمة تضم أطفاله الأربعة مع راندا في أحد العياد. كانت ابتسامة "جنى" الصافية تذكره بكل ما خسره.

تنهد بمرارة، ودون أن يدرك، كان الشرخ الأول قد ظهر في زواجه الجديد؛ شرخ لن يلتئم، بل سيتسع لابتلاع الجميع في قادم الأيام.

مرت ثلاث سنوات على زواج رامي ومنال. ثلاث سنوات تغيرت فيها ملامح الحياة كثيراً، لكن شيئاً واحداً ظل يزداد اشتعالاً تحت الرماد: الغيرة المرضية التي تأكل قلب منال كلما تلقت طعنة تذكرها بأن لرامي قطعة من روحه في مكان آخر.

في مستشفى خاص بقلب المنصورة، كان رامي يقف في الممر الداخلي بانتظار خروج الطبيب. كانت رائحة المظهرات تحيط بالمكان، وصوت أقدام الممرضات يعزف إيقاعاً متوتراً. أخيرًا، فتح الباب وخرج الطبيب يبتسم ابتسامة مقتضبة:

مبروك يا أستاذ رامي.. ولد زي الفل، والمدام منال بخير والحمد لله

تنفس رامي الصعداء، وتسللت ابتسامة دافئة إلى وجهه الإرهاق. دخل الغرفة ليجد منال تستلقي على الفراش الأبيض، وجهها شاحب لكن عينيها تحتفظان بنفس ذلك البريق الحاد الواثق.

اقترب منها وطبع قبلة خفيفة على جبهتها، ثم حمل الطفل الصغير بين يديه بحنان أبوي صادق، وسماياه مازن

:قال رامي بصوت حنون وهو يتأمل وجه الصغير

حمد الله على سلامتك يا منال.. يتربى في عزنا يا رب، ربنا يبارك فيه ويجعله سند لإخواته

تغيرت ملامح منال فور سماع كلمة "إخواته". سحبت يدها برفق تصنعي، وقالت بنبرة خفيضة لكنها مشحونة بالسم:

إخواته؟ تقصد مازن مش محتاج غير نفسه يا رامي. هو ابنك الوحيد اللي عايش معاك وتحت رعايتك.. الباقيين عندهم أمهم متكفلة بيهم

:غمض رامي عينيه بضيق، وحاول ألا يفسد اللحظة

منال.. إحنا في مستشفى وبنحتفل بطفل جديد، بلاش الكلام ده دلوقتي. عمر وجنى وحمزة وياسين إخواته، وده واقع مفيش حاجة هتغيره

لم ترد منال، لكن ابتسامتها الباردة كانت تعلن بوضوح عن دخول المرحلة لمستوى جديد أكثر شراسة.

بعد مضي أشهر قليلة، ظهر الأثر الحقيقي لمولد "مازن". ظنت منال أن مجيء طفل جديد سيقطع الخيط الرفيع المتبقي بين رامي وأبنائه الأربعة من راندا، لكن النتيجة جاءت عكسية تماماً.

كان رامي يزداد شعوراً بالذنب؛ كان يرى أطفاله الأربعة يكبرون بعيداً عنه، "عمر" أصبح في بداية مراهقته ويحتاج لوجود الأب، و"جنى" تتفوق في دراستها وتتمنى مشاركته فرحتها، والتوأم يحتاجان لرعايته. بدأ رامي يخصص أوقاتاً أطول للأربعة، يشتري لهم الهدايا، يتابع مصاريف دراستهم بالكامل، ويزورهم باستمرار في شقتهم، محاولاً تعويضهم عن سنوات البعد.

في ليلة من ليالي الصيف، عاد رامي إلى الشقة في حي "المشاية" وهو يحمل أكياساً محملة بلعب وألبسة لـ "مازن". كانت منال تجلس في الصالة، وأمامها دفتر المصاريف الشهرية.

رماها بالسلام، لكنها لم ترد. رفعت رأسها ونظرت إليه بعينين تفيضان بالكره:

كنت فين لحد دلوقتي يا رامي؟

جلس رامي بإرهاق:

كنت مع عمر وجنى.. بنشتري طلبات المدرسة للسنة الجديدة

قامت منال بحدة ورمت الدفتر على الطاولة أمامه:

وليه أنت اللي تشتري؟ هي راندا مبتقبضش النفقة كل أول شهر؟ أنت بتدفع هناك أضعاف اللي بتصرفه في البيت ده! طالع نازل

تصرف عليهم وتفسحهم، ورائدا قاعدالك هناك ملهمة ومش ناقصها حاجة على حسابي وحساب ابني

وقف رامي وصوته يرتفع بحدّة:

على حسابك وحساب ابنك إيه؟! أنا راجل بشتغل وشقيان وأموالي تكفي بيتين وزيادة! ولادي الأربعة حقهم عليا أعيشهم في أعلى مستوى، ورائدا مبتطلبش جنيه زيادة عن حق الأولاد! اتقي الله يا منال بلاش الغل ده

اقتربت منه منال وصدرها يعلو ويهبط بالأنفاس الغاضبة، وقالت وهي تشير بإصبعها نحو وجهه:

الغل ده أنت اللي زرعته فيا يا رامي! لما تخليني أحس طول الوقت إن ابني مازن مجرد رقم إضافي في حياتك، وإن الولاء الأول والأخير لأولاد راندا.. يبقى متستناش مني غير الرفض! الأربعة دول طالعينلي في كل خطوة في حياتي، ولحد ما يختفوا من طريقنا.. البيت ده مش هيرتاح

نظرت إليه كالحية السامة، ثم التفتت وغادرت نحو غرفة طفلها، تاركة رامي يقف مذهولاً من جملتها الأخيرة: "لحد ما يختفوا من طريقنا".

كانت الكلمات تدوي في أذنيه كإنذار شؤم، دون أن يستوعب عداوتها المخيفة، وأن الغيرة النرجسية في قلب منال قد تجاوزت مرحلة الكلام... وبدأت تخطط لما هو أفظع بكثير

استقرت في جنبات شقة "المشاية" برودةٌ ثقيلة تُشبه البرودة التي تسبق العواصف الرعدية في أواخر الخريف. لم تعد الخلافات بين رامي ومنال تتأجج بصراخٍ عالٍ كما كانت في البداية، بل تحولت إلى صمتٍ ملغوم، وابتساماتٍ باهتة تُخفي خلفها كراهية متجسدة.

كانت منال قد أدركت أن المواجهة المباشرة مع رامي لن تؤدي إلا إلى إبعادها عن مركز السيطرة. لذا، بدأت تعتمد أسلوباً جديداً؛ الدهاء والتظاهر بالرضا الظاهري، بينما كانت نيران الغيرة تأكلها من الداخل كلما رأته يُحضر حقائبه أو يستعد لقضاء عطلة نهاية الأسبوع مع أبنائه الأربعة.

في صباح يوم جمعة مشمس، كان رامي يقف أمام المرآة يرتدي ساعته، وعلامات الارتياح تظهر على وجهه. كان قد خطط لنزهة النيلية مع "عمر" و"جنى" والتوأم "حمزة" و"ياسين".

اقتربت منه منال وهي تحمل طفلها "مازن" على كتفها. كانت ترتدي ثوباً منزلياً أنيقاً، وعلى وجهها ابتسامة مصنوعة ببراعة:

طالع تشوف الأولاد يا رامي؟

:التفت إليها رامي مستغرباً هدوءها غير المعتاد، وقال بريبة خفيفة

أيوه يا منال.. اتفقت معاهم نخرج نتغدى في المطعم على النيل، وبعدها نوديهم الملاهي

مدت منال يدها وعدلت ياقة قميصه بحركة ناعمة، ثم قالت بصوت خفيض يقطر بالرقة الزائفة:

ربنا يخليهم لك يا حبيبي.. أنا عارفة إني كنت بقسى عليك في الكلام الفترات اللي فاتت، بس ده كان من حبي ليك وغيرتي عليك وعلى مازن. أنا حابة نفتح صفحة جديدة.. إيه رأيك المرة الجاية تجيبهم "هنا الشقة يتغدوا معانا؟ مش هم إخوات مازن برضه؟

نظر إليها رامي بدهشة لم يستطع إخفاءها. تسللت شكوك خفيفة إلى عقله، لكنه سرعان ما طردها، مفسراً سلوكها بأنه بداية لنضجها وتقبلها للواقع. ابتسم وقال بحنية:

يا ريت يا منال.. لو عملتي كده هتبقي شيلتي عني هم كبير، وهتثبتيلي إنك فعلاً عقلتي وعايزة بيتنا يستقر

طبع قبلة على رأس طفلها مازن ثم خرج، أغلقت منال الباب خلفه بهدوء. وبمجرد أن اختفت خطواته على الدرج، تلاشت الابتسامة المبتذلة من وجهها، واستحالت ملامحها إلى جمود مرعب.

سارت نحو نافذة الصالة المطلة على الشارع الرئيسي، ووقفت ترقبه وهو يركب سيارته وينطلق بها. تمتمت بنبرة حادة كالشفرة:

عقلت؟ أنت فاكر إني هقبل أتقاسمك مع ولاد راندا طول العمر؟ فاكر إن ابني مازن هيطلع يأكل الفتات من بعدهم؟

على الجانب الآخر، كان اللقاء في المطعم النيلي يفيض بالدفء. كان "عمر" يستعرض تفوقه في المدرسة أمام أبيه، بينما كانت "جنى" تشاركهما الضحكات بطفولية عذبة، والتوأم يتقافزان حول المائدة.

شعر رامي بجرعة حنان نسيت قلبه منذ سنوات، لكنه كان يلاحظ في عيني "عمر" نظرة حذرٍ كبار، نظرة طفل جرحه الغياب ورأى أمه تتألم في صمت.

أثناء عودتهم إلى الشقة السكنية التي تقيم فيها راندا مع أبنائها، نزل رامي معهم ليطمئن على توصيلهم. فتحت راندا الباب، وكانت ترتدي ثوباً بسيطاً ووشاحاً هادئاً. لم تعد في عينيها تلك الدموع الجريحة التي تركها بها منذ سنوات، بل حل محلها ثباتٌ ووقار صامت.

قالت برسمية هادئة:

شكراً يا رامي.. اتفضل ادخل اشرب حاجة

هز رامي رأسه بالرفض وهو يلقي نظرة سريعة على البيت الذي كان يوماً حصنه:

شكراً يا راندا.. مش عايز أعطلكم. أنا بس كنت عايز أقولك إن منال اقترحت إن الأولاد يجوا عندي الشقة الجمعة الجاية يتغدوا معانا ومع أخوهم مازن

توقفت راندا لثوانٍ، وتغيرت نبرة صوتها إلى التحذير الصادق، وقالت وعيناها تتفحصان ملامحه:

منال؟ هي منال اقترحت كده من نفسها يا رامي؟

رد رامي بثقة:

أيوه.. هي بدأت تغير طريقتها وعايزة الأمور تتصلح بيننا كلنا

نظرت إليه راندا بنظرة ألم وشفق، وقالت بنبرة حازمة:

الست دي مابتغيرش طريقتها لوجه الله يا رامي.. الغيرة لما بتدخل قلب ست نرجسية بتعميها. أنا مش خايفة على نفسي، أنا خايفة على أولادي الأربعة.. خليهم بعيد عنها، ده أمن ليهم وليك

انزعج رامي من تحذيرها واعتبره مجرد شكوك قديمة:

أنتي بتبالغي يا راندا! هي في الآخر ست وأم، ومحالة تضر أطفال! الجمعة الجاية هيجوا عندي وده قرار انتهى

لم تجادله راندا، بل اكتفت بالنظر إلى أطفالها بقلبٍ يعتصره الخوف، دون أن يدركا أن الأيام كانت تسير بحثيث نحو شهر يوليو... الشهر الذي سينهار فيه سقف الجليد، ليخرج النار والدم إلى العلن

أطل شهر يوليو على مدينة المنصورة بحرارة لافحة، لم تقتصر على أجواء الشارع بل امتدت لتخنق أركان البيت السكني في حي "المشاية". كانت شقة رامي ومنال تتنفس التوتر كأنه هواءٌ ثقيل؛ الخطة التي ادعت فيها منال التسامح والتقارب لم تكن سوى واجهة هشّة انكسرت مع أول اختبار حقيقي.

كان يوم الجمعة قد اقترب، وكان يفترض أن يكون اليوم الموعود لاستضافة الأطفال الأربعة: "عمر" و"جنى" والتوأم "حمزة" و"ياسين". غير أن الهدوء الزائف الذي تصنعته منال سرعان ما انحلّ تحت ثقل كبريائها النرجسي.

في صباح يوم الثلاثاء، السابع من يوليو، كان رامي يجلس في الصالة ينهي بعض الاتصالات الخاصة بعمله، بينما كانت منال تتحرك حوله بعصبية ملحوظة، تجر قدميها بحدة وتخبط الأواني في المطبخ بصوتٍ متعمد.

خرج رامي من اتصاله ونظر إليها بإرهاق:

في إيه يا منال؟ من صحيتِ وأنتي طالعة نازلة تدبي في البيت.. في حاجة مش مظبوطة؟

توقفت منال في منتصف الصالة، ورمته بنظرة تقدح شراراً، ثم قالت بصوت حاد يحمل كل ما اختزنته من كره:

اللي مش مظبوط هو المهزلة اللي أنت عايز تعملها يوم الجمعة! أنت فاكرني بجد هقف في المطبخ أطبخ وأخدم أربع أطفال جايبهم من راندا؟ فاكرني هسمح لولادها يدخلوا بيتي يوسخوه ويلعبوا فيه ويقاسموا ابني مازن في المكان؟

وقف رامي مذهولاً، وارتفعت نبرته بصدمة:

أنتي مش قبل كام يوم بنفسك اللي اقترحتِ إنهم يجوا؟ مش أنتي اللي قولتي نفتح صفحة جديدة ورامي يلم شمله مع ولاده؟

ضحكت منال ضحكة ساخرة مريرة، وقالت وهي تقترب منه بوقاحة:

كنت بختبرك! كنت بختبر أشوف لسه عندك دم وتحس بيا وبابنك، ولا لسه عبد لأوامر راندا وذكرياتك معاها! اكتشفت إنك مابت صدقت.. صدقت إن ممكن أطيق ولادها في بيتي

امتقع وجه رامي، وشعر بشلال من الغضب يتدفق في عروقه. سار نحوها وأمسك بذراعها بقوة، وقال ونبرته ترتجف من القهر:

حدك يا منال! ولادي مش شوائب ولا جايين شحاتين في بيتك! ده بيتي قبل ما يكون بيتك، ولادي الأربعة أطهر وأحسن منك ومن أي

حد يقلل منهم! أنا اللي غلطت لما صدقت إنك ممكن تكوني بني آدمة وعندك رحمة

نفضت يدها من قبضته بحدة، وعيناها تتسعان بمرض نرجسي خطير، وقالت بصوت خفيض كأنه صفير الحية:

أنا ورحمتي أحسن منك ومن راندا! والأربعة دول مش هيدخلوا بيتي أبداً.. ولو جوم، مش هيطلعوا منه زيك ما متوقع يا رامي! أنا بقولك أهو.. ابعدهم عن حياتنا أحسنلك وأحسنليهم

ساد صمتٌ قاتل بينهما. كانت عبارة منال الأخير تحتوي على تهديد مبطن، نبرة غريبة لم يعهدها رامي من قبل؛ نبرة تجردت من كل إنسانية.

نظر إليها رامي بدهشة ورعب مكتوم، ثم ترك البيت وخرج يضرب الباب خلفه بقوة هزت البناية بأكملها.

سار رامي في شوارع المنصورة المتعرجة، والشمس تتوهج فوق رأسه، وعقله يغلي بالأفكار. تذكر تحذير راندا الصادق قبل أيام: "الست دي مابتغيرش طريقتها لوجه الله.. الغيرة لما بتدخل قلب ست نرجسية بتعميها.. خليهم بعيد عنها."

كان رامي يظن أن تحذير راندا مجرد مبالغة من زوجة سابقة، لكنه الآن ولأول مرة، بدأ يشعر ببرودة تسري في أطرافه. رأى في عيني منال شيئاً أبعد من مجرد الغيرة.. رأى رغبة جامحة في المحو، رغبة في التخلص من كل ما يربطه بماضيه، مهما كان الثمن.

ولم يكن يعلم أن هذه المواجهة في السابع من يوليو كانت مجرد الشرارة الأولى، وأن نيران الانتقام أصبحت جاهزة للاشتعال بعد ثلاثة أيام فقط... في العاشر من يوليو

مر يوم الثامن والتاسع من يوليو في صمتٍ ثقيل، يشبه السكون الخانق الذي يسبق العاصفة. لم يتبادل رامي ومنال كلمة واحدة؛ كان كل منهما يتحرك في شقة "المشاية" كأنه طيفٌ غريب عن الآخر. رامي غارقٌ في تفكيره وفي شعوره بالندم الشديد على قراراته السابقة، بينما كانت منال تقضي معظم وقتها مع طفلها "مازن" خلف باب غرفتها المغلق.

لكن خلف ذلك الباب، لم تكن منال تنام ولا تهدأ. كانت الغيرة النرجسية قد تمكنت من كل خلية في عقلها، واستحالت إلى فكرة ثابتة ومرضية: "رامي لن يكون لي وحدي، ومازن لن يأخذ مقامه المستحق، إلا إذا اختفى هؤلاء الأطفال الأربعة من الوجود

في مساء التاسع من يوليو، تسللت منال من الغرفة بعد أن تأكدت أن رامي قد خمد في نومٍ ثقيل جراء الإرهاق والتفكير. توجهت بخطوات خفيفة كالهباء إلى المطبخ.

فتحت أحد الأدراج السفلى بعناية، وأخرجت عبوة زجاجية صغيرة لا تحمل أي اسم، كان قد سبق لها شراؤها من إحدى المتاجر القديمة المجهولة بحجة القضاء على الآفات. كانت عبوة تتضمن مادة سامة بطيئة المفعول، بلا طعم ولا رائحة، ولكنها كفيلة بإحداث فشل حاد في وظائف الجسد خلال ساعات معدودة.

تأملت منال الزجاجة في العتمة، وبريقٌ شيطاني يتلامع في عينيها. لم تكن ترى أمامها أطفالاً أبرياء، بل كانت ترى "تهديداً" يجب محوه لتبسط سيطرتها المطلقة على رامي وثروته وبيت المستقبل.

تمتمت بصوت شبه همس وهي تطبق بأصابعها على الزجاجة:

بكرة... بكرة عشره يوليو. البداية والنهاية لكل حاجة يا رامي. بكرة هترتاح منهم وهستريح أنا وابتدي حياتي من غير ما أي حد يشاركني فيك

وضعت العبوة في حقيبتها اليدوية بحرص شديد، وأغلقت السحاب، ثم عادت إلى الغرفة واستلقت بجانب رامي وهي تنظر إلى ظهره الملتف بعيداً عنها.

في الجهة الأخرى، كان رامي يتململ في نومه، تحيط به كوابيس مبهمة وصور لأطفاله الأربعة وهم يصرخون في أفقٍ مظلم دون أن يستطيع الوصول إليهم.

كانت ساعات الليل تتآكل ببطء، وتنسحب إلى غياهب الماضي، معلنةً اقتراب فجر اليوم الموعود... العاشر من يوليو، اليوم الذي سينقضي فيه زمن الخفاء، وتبدأ فيه أبشع صفحة في تاريخ تلك العائلة

أشرقت شمس العاشر من يوليو على مدينة المنصورة بثقلٍ يزن الجبال. كان الهواء خانقاً ورطباً منذ الصباح الباكر، وكان النيل يتدفق هادئاً ببرودٍ يثير الارتياب، وكأنه على علمٍ بالدمار الذي يُطبخ في أزقة المدينة.

في شقة "المشاية"، استيقظ رامي في السابعة صباحاً على صداعٍ حاد يفتك برأسه. جلس على حافة الفراش، ونظر إلى الجانب الآخر ليجد منال قائمة بالفعل، تقف أمام المرآة ترتب شعرها بهدوءٍ مريب وابتسامة غامضة ترتسم على شفتيها.

تطلع إليها رامي بتوجس وقال بنبرة مبحوحة:

صباح الخير.. صاحية بدري يعني؟

التفتت إليه منال، وكانت عيناها تبرقان بنشاطٍ غير معتاد، وقالت بصوت ناعم يفيض بالود التصنعي:

صباح النور يا رامي.. أصل يفكر في الكلام اللي دار بيننا الكام يوم اللي فاتوا، وحسيت إني ظلتك وظلمت نفسك. أنا جيت على كبريائي وصممت نفتح صفحة جديدة النهاردة

ارتاب رامي من هذا التحول المفاجئ، وحاول تفحص ملامحها: صفحة جديدة؟ إزاي يعني يا منال؟

اقتربت منه وجلست بجانبه، وأمسكت بيده بضغطات ناعمة:

النهاردة الجمعة.. 10 يوليو. إيه رأيك تتصل براندا وتقولها إنك هتروح تأخد الأولاد الأربعة، وتطلع بيهم على نادي الحوار أو أي مكان مفتوح يتغدوا ويلعبوا؟ وأنا هجهز لهم هنا عصير وحلويات وأكل يحبوه في علب تأخدها معاك، تتصل تسلم عليهم وتعمل مع أطفالك اليوم اللي وعدتهم بيه

تطلع إليها رامي بذهول. كان كلامها يبدو منطقياً وجميلاً، لكن العبارات القاسية التي تفوهت بها قبل أيام كانت ما تزال تتردد في أذنيه. تساءل في سره: هل تعقلت فعلاً؟ أم أنها تحاول فقط امتصاص غضبي؟

قال رامي بتردد:

"أنتي بتكلمي جد يا منال؟ مش دي كانت مشكلتك الكبيرة؟

:ابتسمت منال ابتسامة عريضة، وشدت على يده

علشان خاطرك وخاطر مازن يا حبيبي.. لازم نتنازل علشان البيوت تعيش. قوم يلا اتصل براندا، وأنا هقوم المطبخ أعمل لهم أحلى أكل وعصير بنفسي

قام رامي وأمسك هاتفه، وهو يشعر بمزيج من الراحة والريبة. :اتصل براندا، وبعد رنات قليلة جاءه صوتها الهادئ الحذر

أيوة يا رامي.. خير؟

صباح الخير يا راندا.. أنا بكلمك علشان أقولك إني هعدي أخد عمر وجنى والتوأم النهاردة الساعة 2 الضهر، هنقضي اليوم سوا في النادي

:ساد الصمت من طرف راندا لثوانٍ، ثم قالت بشك

رامي.. هو في حاجة؟ أنت مش قولت المرة اللي فاتت إن في مشاكل بسبب الموضوع ده؟

:حاول رامي أن يبدو طبيعياً

المشاكل اتفتت يا راندا، ومنال نفسها هي اللي اقترحت وشجعتني أخرج مع الأربعة النهاردة.. متقلقيش، الأوضاع كويسة

تنهدت راندا بصوت خفيض، وقالت بنبرة أم لا يخيب حدسها أبداً:

ربنا يسلم يا رامي.. الأولاد هيكونوا جاهزين في الميعاد

في المطبخ، كانت منال تقف وقد أغلقت الباب خلفها ببطء.

أخرجت من حقيبتها العبوة الزجاجية الصغيرة، ووضعتها على الرخام. قامت بإعداد أربع عبوات من عصير الفراولة الطبيعي الذي يعشقه الأطفال، وزعت العصير في زجاجات بلاستيكية صغيرة ملونة.

بأيدي ثابته لا ترتجف، فتحت منال العبوة الزجاجية، وسكبت قطرات السّم البطيء في الزجاجات الأربع. حرّكت الزجاجات بعناية حتى ذابت المادة بالكامل دون أن تترك أي أثر أو تغير في اللون أو الرائحة.

ابتسمت منال ابتسامة مرعبة وهي تتأمل الزجاجات الأربع المرصوفة أمامها على الرخام، وتمتمت بنبرة تحيط بها النرجسية والغل:

عصير العافية يا أولاد راندا.. 10 يوليو هيفضل فاكره رامي طول عمره

مسحت الرخام بعناية، وضعت زجاجات العصير في حقيبة تبريد صغيرة، وأغلقت السحاب ببطء، معلنةً انطلاق العد العكسي للكارثة التي ستحول ليلة المنصورة إلى بركان من الدم والانتقام

كانت الساعة تتجه نحو الثانية ظهراً، والشمس تُرسل أزمتها الحارقة لتبخّر ما تبقى من رطوبة النيل. في صالة الشقة، كان رامي يرتدي ساعته اليدوية، بينما عينيه تراقبان الحركة غير الطبيعية لمنال في المطبخ.

خرجت منال وهي تحمل حقيبة قماشية صغيرة مخصصة لحفظ البرودة، أغلقت سحابها بعناية فائقة ورفعتها بنعومة كأنها تحمل ثروة طائلة. اقتربت من رامي والابتسامة المجهزة بدقة ترتسم على وجهها:

جاهز يا حبيبي؟ الحقيبة دي فيها عصير فراولة فرش أربعة أزايز على عدد الأولاد، ومعاهم شوية حلويات. متخلهمش يشتروا حاجة من الشارع علشان صحتهم

مد رامي يده لتناول الحقيبة، لكن شيئاً ما في نبرة صوتها الشديدة الحرص أثار في نفسه ريبة خفية. كانت منال طوال السنوات الثلاث تتذمر من مجرد ذكر أسمائهم، واليوم تقف لتبدي حناناً مفاجئاً لم يسبق له مثيل.

نظرت منال في عينيه وهي تلاحظ وقفته، فقالت بنبرة حاولت أن تجعلها طبيعية:

مالك بتشوفني كده ليه يا رامي؟ مش أنت اللي كنت عايزني أهتم بيهم؟

ابتلع رامي ريقه وهز رأسه متمتماً:

لا.. مفيش. تسلم إيدك يا منال

أخذ الحقيبة، وطبع قبلة سريعة على رأس طفله الصغير "مازن" الجالس في مشاية الأطفال، ثم خرج متوجهاً إلى سيارته.

في السيارة، وضع رامي الحقيبة على المقعد المجاور. كانت حرارة بداخل المركبة عالية قبل تشغيل التكييف. تحركت السيارة في شوارع المنصورة المزدحمة، متجهة نحو الحي السكني الذي تقيم فيه راندا والأولاد.

طوال الطريق، كان عقله يتصارع. تحذيرات راندا السابقة كانت تتردد في ذهنه كالجرس: "الست دي مابتغيرش طريقتها لوجه الله.. الغيرة لما بتدخل قلب ست نرجسية بتعميها". ثم تذكر نبرة منال الحادة قبل ثلاثة أيام فقط عندما قالت: "والأربعة دول مش هيدخلوا بيتي أبداً.. ولو جوم مش هيطلعوا زيك ما متوقع".

توقف رامي عند إشارة المرور بوسط المدينة. نظر إلى الحقيبة القماشية بجانبه. تسلل إليه شك مريب؛ لماذا أصرت على إعداد العصير بنفسها؟ ولماذا أغلقت باب المطبخ أثناء تحضيره؟

فتح سحاب الحقيبة وأخرج إحدى زجاجات العصير الأربع. كانت ذات لون أحمر قانٍ، تبدو طبيعية تماماً. رفُع الزجاجة وقرّبها من أنفه بعد فتحها؛ لم تكن هناك رائحة غريبة، لكن عقله المجهد كان يعطيه إشارات تحذيرية لا يمكن تجاهلها.

وصل رامي إلى المبنى الذي تقطن فيه راندا. صعد الدرج بخطوات ثقيلة، وضغط على زر الجرس.

فتحت راندا الباب. كانت ترتدي ملابسها العادية، وخلفها كان "عمر" و"جنى" والتوأم يرتدون ملابس الخروج وقفزات الفرح بلقاء أبيهم تسبقهم إلى الباب.

قال رامي بصوت يفتقد إلى الحماس:

إزيك يا راندا.. الأولاد جاهزين؟

ردت راندا وهي تتفحص وجهه المرهق:

جاهزين من بدري يا رامي.. مالك؟ وشك أصفر كأنك شارب هم الدنيا

ألقى رامي نظرة على أطفاله الأربعة الذين تزاحموا حوله، "حمزة" و"ياسين" يمسكان بيده، و"جنى" تبتسم برقة، و"عمر" ينظر إليه باهتمام الأبن الأكبر.

نزل رامي إلى مستوى أطفاله وظل صامتاً لثوانٍ، والحقيبة الملعونة تتثاقل في يده كأنها جمرة من نار. كانت غريزة الأبوة في تلك اللحظة تخوض معركتها الأخيرة والأهم ضد السذاجة والعمى الذي عاش فيه لسنوات

وقفت راندا عند عتبة الباب، وعيناها النافذتان ترتقبان نظرات رامي المربكة والحقيبة القماشية التي يمسك بها بيده المرتجفة. لم تكن تحتاج لخبرة كبيرة لتعلم أن هناك شيئاً غير طبيعي يدور في عقله.

قفز التوأم "حمزة" و"ياسين" حول رامي بشغف الأطفال:

بابا! هنروح الملاهي ونركب العربيات ولا هنروح النادي الأول؟

ابتسم رامي ابتسامة باهتة وهو يمسح على رأسيهما، ثم رفع عينيه ونظر إلى "عمر" الأكبر، الذي كان يقف خلفهما بنظرة كبار تفيض بالحذر.

قال رامي بصوت يرتجف قليلاً:

هنروح كل الأماكن اللي بتحبوها يا أولاد.. بس استنوا هنا ثواني

التفت رامي إلى راندا وقال بصوت خفيض:

راندا.. ممكن أدخل ثانية؟ عايز أكلمك في حاجة

تراجعت راندا إلى الخلف وفتحت الباب على وسعه، وأشارت للأطفال بالدخول إلى الغرفة المجاورة. دخل رامي الصالة، ووضع الحقيبة القماشية على الطاولة الزجاجية في المنتصف.

جلست راندا أمامه وهي تتفحص الحقيبة بنظرة ارتياب، ثم رفعت عينها إليه وقالت بنبرة حازمة:

في إيه يا رامي؟ الشنطة دي فيها إيه؟ ومبتسمتش ليه وأنت شايف الأولاد فرحانين بيك؟

مسح رامي وجهه بيديه المجهدتين، والتفت يميناً ويساراً للتأكد من أن الأطفال بعيدون عن المسمع، ثم قال بأسلوب متوتر:

منال هي اللي عملت العصير ده.. أصرت تعمل أربع أزايز عصير فراولة بنفسها للأولاد وتديهم لي وأنا طالع

تضيقت عينا راندا، وظهرت على وجهها تعابير الصدمة والتحفز:

منال؟ منال اللي كانت بتصرخ في وشك لمجرد إنك بتدفع مصاريف مدراسهم؟ منال اللي قالتلك مش هطيق أشوفهم في بيتها؟ هي اللي عملت لهم عصير بإيدها؟

قسّم رامي أنفاسه بصعوبة:

أنا عارف إن الموقف غريب يا راندا.. هي قالتلي إنها عايزة تفتح صفحة جديدة، بس... بس أنا مش مرتاح. في حاجة مش مظبوطة في نظراتها الصبح. دخلت المطبخ وقفلت الباب، ولما خرجت كانت مبتسمة ابتسامة غريبة أوي

قامت راندا بحدة، واقتربت من الطاولة، ونظرت إلى الحقيبة كأنها حية سامة تختبئ بين الأقمشة:

أنت مجنون يا رامي؟! أنت جايب عصير من ست نرجسية كارهة للأولاد وعايز تديهولهم يشربوه؟ أنت بجد كنت هتاكل ولادك من إيدها؟

رد رامي يدافع عن نفسه بارتباك:

أنا مادتهمش حاجة! أنا مجرد ما مسكت الشنطة قلبي اتقبض! علشان كده دخلتلك هنا ومطلعتش بيهم على طول

ساد صمت قاطع في الصالة. كان هواء الغرفة ثقيلاً كأن زلزالاً على وشك أن يضرب المكان. رفعت راندا إحدى زجاجات العصير،

ونظرت إلى لونها الأحمر القاني، ثم رفعت عينها إلى رامي وقالت بصرامة يملؤها الخوف والتحذير:

الزجاجة دي مش هتلمس شفايف واحد من أولادي يا رامي.. ولو أنت راجل وعندك شك واحد في المية إن الست دي ممكن تضر ولادك، لازم تتأكد بنفسك قبل ما تفكر ترجع البيت ده تاني

تسمر رامي في مكانه. كانت كلمات راندا تسقط على قلبه كالمطارق. نظر إلى زجاجات العصير الأربع المرصوفة، وتسللت بذور اليقين المظلم إلى عقله؛ لم تكن صفحة جديدة ولا تسامحاً... كانت محاولة قتل مُدبرة في صبيحة العاشر من يوليو

نزل رامي درجات السلم بخطواتٍ مضطربة، كان يحمل الحقيبة الملعونة بين يديه كأنها حزامٌ ناسف وشكوكه تدور في رأسه كعاصفةٍ هوجاء. خلفه، كانت راندا تقف عند شرفة الشقة المطلة على الأزقة الهادئة خلف العمارة، ترقبه بعينين تفيضان بالذعر والترقب، بينما احتجزت أطفالها الأربعة في الغرفة الداخلية تحت أي ذريعة.

وصل رامي إلى الزقاق الخلفي للمبنى، حيث كانت حرارة الظهيرة صامتة وثقيلة. توقف بجانب شجرة سدر قديمة، ووضع الحقيبة على الصدامات الحجرية. كانت أنفاسه تتصاعد حادة، وصدره يعلو ويهبط وهو يحاول طرد الفكرة البشعة من عقله: "مستحيل.. مستحيل تكون بالبشاعة دي.. أكيد أنا مريض وشكوكي هبلة".

فتح الحقيبة وأخرج إحدى زجاجات العصير الملونة. استخرج من سيارته كوباً بلاستيكياً صغيراً، وسكب فيه بضع قطرات من عصير الفراولة الطبيعي الداكن.

في زاوية الزقاق، كانت هناك قطة شارع هائلة الجسد تتفيأ تحت إحدى السيارات المتوقفة. تنحنح رامي بصوت متهدج، وقرب الكوب منها ووضعه على الأرض، ثم تراجع خطوتين إلى الخلف، وعيناه متسمرتان على السائل الأحمر.

اقتربت القطة ببطء، شمت الحافة، ثم بدأت تلعق القليل من العصير الجذاب برائحته السكرية.

مرت دقيقة واحدة... دقيقة كانت أطول من سنوات عمره العشر السابقة.

وفجأة، توقفت القطة عن اللعق. اتسعت حداقتا عينيها بشكل مرعب، وأصدرت خواراً خفيضاً يمزقه الألم. قبل أن يرتد طرف رامي، بدأت القطة تتلوى على الأرض بجنون، وتضرب بجسدها الرمادي على الإسفلت الساخن، بينما زبد أبيض يتدفق من فمها مصحوباً بتقلصات حادة تسحق جسدها الصغير.

وفي خلال أربعين ثانية... سكن الجسد تماماً.

سقط الكوب البلاستيكي من يد رامي، وتناثرت القطرات الحمراء على الأرض كأنها بقع من دمٍ مسكوب.

تسمر رامي في مكانه. تجمدت الدماء في عروقه، وشعر ببرودة صقيع تجتاح أطرافه رغم حرارة المنصورة الحارقة. لم يكن هذا مجرد شك... كان هذا يقيناً قاطعاً كالشفرة.

منال... المرأة التي طلق من أجلها حب عمره، المرأة التي هدم بيته ليحضنها، المرأة التي نام بجوارها لثلاث سنوات... حاولت للتو، في صبيحة العاشر من يوليو، إبادة أطفاله الأربعة الأبرياء بدم بارد، بجرعة سم بطيئة كانت كفيلة بتمزيق أحشائهم في غضون ساعات!

رفع رامي رأسيه إلى الأعلى، فرأى راندا تقف في الشرفة، عيناها معلقتان بملامحه الصادمة وبالقطة الملقاة على الأرض. صرخت راندا مكتومة اليد على فمها، وسقطت على ركبتيها خلف سور الشرفة من هول ما رأت.

في تلك اللحظة بالذات، انكسر شيءٌ ما داخل رامي. انكسر العقل، والتوازن، والرحمة، وما تبقى من الإنسانية في قلبه.

لم يبكِ، ولم يصرخ. استمالت ملامح وجهه إلى جمودٍ كلسي مرعب، واستحالت عيناه الدافئتان إلى جمرتين من سوادٍ مطبق.

سار بخطوات أوتوماتيكية نحو الحقيبة الملعونة، جَمع زجاجات العصير بعناية، وأغلق السحاب ببطء. أخرج هاتفه المحمول من جيبه، واتصل براندا.

جاءه صوتها مجهشاً بالبكاء والرعب من الشرفة:

رامي!! الست دي... الست دي كانت هتموت ولادي؟! رامي رد عليا يا رامي

رد رامي بنبرة خالية تماماً من أي نبرة بشرية، نبرة هادئة جافة كالقبور:

راندا... افقلي بابك عليكي وعلى الأولاد. متطلعيش حد من البيت، ومتتصليش بيا لحد ما أنا أكلمك

رامي أنت رايح فين؟! هنعمل إيه؟ نبلغ الشرطة يا رامي

الشرطة مش هتطفئ النار اللي في صدري يا راندا... قفلي بابك

أغلق الهاتف في وجهها قبل أن تجيب. دخل سيارته، وضع حقيبة السم على المقعد المجاور، وشغّل المحرك. كانت نظراته مثبتة على الطريق الممتد نحو حي "المشاية"... نحو الشقة التي تنتظره فيها منال، وهي تحسب الدقائق لتسمع خبر احتضار أطفاله الأربعة.

وكان الشيطان بنفسه يرافقه في المقعد الخلفي، ليحضر ليلة العاشر من يوليو

كانت الطريق الممتدة من حي راندا إلى حي "المشاية" بالمنصورة تبدو في عيني رامي وكأنها برزخٌ يفصل بين عالمين؛ عالم فيه أربعة أطفال أنقذت الأقدار حياتهم في اللحظة الأخيرة، وعالم آخر ينتظره فيه الوحش الذي ألبسه ثوب زوجة.

أمسك رامي بعجلة القيادة بكلتا يديه حتى ابيضّت مفاصِله. لم ينبس بكلمة، ولم تشفتاه تنطقان بزفير واحد. كان صامتاً صمتاً كلسياً أشدّ رعباً من أي صراخ. بجانبه على المقعد كانت الحقيبة الملعونة تتوسد الظل، وبداخلها زجاجات السّم الداكنة التي كانت مُعدة لتسحق أمعاء صغاره.

وصل إلى البناية. أوقف السيارة بهدوء مريب. حمل الحقيبة، وصعد الدرج بخطوات ثقيلة منتظمة، كأن كل خطوة هي إسفين يُدقّ في تابوت الليلة.

وقفت يده عند مقبض الباب. أدار المفتاح في القفل بلا صوت، ودخل الشقة.

كانت الشقة هادئة جداً. رائحة معطر الجو بعبير الليمون تفوح في أرجاء الصالة، وصوت التلفاز يعمل بصوت خفيض في غرفة المعيشة، حيث كان الصغير "مازن" يلهو ببعض المكعبات على السجادة.

خرجت منال من المطبخ وهي تحمل كوباً من الماء. كانت ترتدي فستاناً أصفر أنيقاً، وشعرها مصفف بعناية. عندما رأته يقف عند الباب والحقيبة في يده، توقفت حركتها لثانية واحدة، وتسلل بريقٌ خاطف من الترقب النرجسي إلى عينيها، قبل أن تلبس قناع البراءة المعتاد.

ابتسمت ابتسامة دافئة مصنوعة، وقالت بنبرة تمتلئ بالتصنّع:

رامي؟ رجعت بدري ليه يا حبيبي؟ مش قولت لي هتقضي مع الأولاد اليوم كله في النادي؟

نظرت إلى الحقيبة التي يمسك بها، وأضافت وهي تقترب منه بخطوات هادئة:

إيه ده؟ الشنطة لسه معلقة في إيدك ليه؟ هو الأولاد مشربوش العصير ولا إيه؟

وقف رامي مكانه كالصنم. كانت عيناه الشاحبتان تتفحصان ملامحها، تلك الملامح التي أحبها يوماً، وفضلها على سنين عمره الست عشرة مع راندا. رأى تحت جلدها الناعم عقرباً ساماً لا يرحم.

وضع الحقيبة القماشية على الطاولة الكبيرة في منتصف الصالة، دون أن يرفع عينيه عنها.

قال بصوت خفيض، جاف، ومجرد من أي نبرة:

لا يا منال... مشربوش

تراجعت خطوة إلى الخلف، وضاق حاجبها بتوجس خفيف، لكنها حاولت الحفاظ على تماسكها:

ليه بس؟ ده أنا تعبت فيه الصبح وعملته مخصوص عشانهم... زعلوني منك والله، هم برضه مش عايزين يتقبلوا مني حاجة؟

سار رامي بخطوات بطيئة نحو الطاولة. فتح سحاب الحقيبة القماشية ببطء، وأخرج إحدى زجاجات العصير الملونة. رفعها في الهواء بين أصابعه، وكانت القطرات الحمراء تتراقص بداخلها تحت ضوء الثريا.

اقترب منها خطوتين، وقال بنبرة هادئة كهدوء المقابر:

العصير كان حلو أوي يا منال... العصير كان مظبوط لدرجة إن القطة اللي في الشارع لما شربت منه بقسومات بسيطة، ماتت في أربعين ثانية تحت رجلي

جمُدت ملامح منال تماماً. طار اللون الوردي من وجنتيها، واستحالت بشرتها إلى أصفر كلسي. سقط كوب الماء من يدها على السجادة ليرتطم بالأرض مكتوماً، وتراجعت خطوتين إلى الخلف، وهي تتلعثم بصوت مرتجف:

رامي... أنت... أنت بتقول إيه؟ قطة إيه وعصير إيه؟ أنت اكيد مجنون أو في حاجة غلط

خطا رامي نحوها خطوة أخرى، وعيناه تتوهجان بنار مكتومة، وقال وهو يضع الزجاجة على مقربة من وجهها:

أنتي كنتِ هتموتي ولادي الأربعة النهاردة يا منال... يوم عشره يوليو

ساد الغرفة صمتٌ يخنق الأنفاس، لم يكن يقطعه سوى صوت صغار المكعبات التي يلهو بها "مازن" في أقصى الغرفة. كانت وجه منال قد خلى تماماً من مساحيق النعومة، وظهَر على ملامحها الذعرُ العاري لقاتلٍ أُلقي القبض عليه متلبساً قبل أن يُتم جريمته.

حاولت منال الصراخ، وتراجعت بجسدها إلى الخلف نحو جدار الصالة، وقالت وهي ترفع يديها بارتجاف شديد:

رامي.. استنى بس! أنت فاهم غلط! أنا... أنا مقصدتش! أنا كنت خايفة على مستقبلي ومستقبل ابنك! الأولاد دول كانوا هيضيعونا، راندا كانت بتستغلك وأنت مش حاسس

كان كلامها يقع على أذني رامي كنزيف من القبح. كل كلمة تخرج من فمها كانت تزيد حطب النار المشتعلة في صدره. لم يرد عليها، ولم يناقشها. أخذ خطوات حازمة وسريعة نحو غرفة الصغير، رفع "مازن" بين يديه بهدوء، ثم حمل وسادته وألعابه ونزل به درجات السلم سراعاً، حيث وضع الصغير في سيارته وأودعه أمانةً لدى جارة قديمة تثق فيها العائلة في نفس البناية دون أن يفصح لها عن شيء، سوى أن يترك الصغير لديهم لساعات.

عادت أقدام رامي تصعد الدرج. لم تكن خطوات رجل، بل كانت خطوات ملك الموت وهو يتجه لنزع روحٍ حان أجلها.

دخل الشقة وأغلق الباب بالترباس الحديدي. أدار المفتاح مرتين، ورماه في جيبه.

كانت منال تقف في منتصف الصالة، تمسك بسكين مطبخ صغير كانت قد جلبته في غيابه السريع، وعيناها تدوران بجنون:

رامي!! لو قربت مني هصرخ وألم عليك الشارع! افتح الباب ده وخليني أمشي!! بيننا طفل يا رامي

تطلع إليها رامي بعينين فارغتين من أي رحمة، وقال بصوت جاف كالصحراء:

بيننا طفل؟ و ولادي الأربعة اللي كنتِ هتموتيهم بالسم بدم بارد، مكنش بينك وبين أبوه حاجة؟ 10 سنين حب دمرتيهم بعقدتك وغلك.. والنهاردة كنتِ هتاخدي أرواحهم

تقدم نحوها بخطوات ثابتة غير أبه بالسكين المرفوع في يدها. حاولت طعنه بانتفاضة مذعورة، لكنه أُمسك بمعصمها بضغطة فولاذية جعلت السكين يسقط يرن على البلاط.

صرخت منال صرخة مكتومة، لكن رامي أطبق بيده الأخرى على حنجرتها، ودفعها بضراوة نحو الجدار.

كانت ليلة العاشر من يوليو قد بلغت ذروتها. لم تكن الجريمة وليدة لحظة طيش، بل كانت مجزرة انتقامية بشعة؛ نهال عليها ضرباً وخنقاً بلا هوادة، مستحضراً كل لحظة غدر، وكل قطرة سم كانت ستسري في أجساد أطفاله الأربعة. كانت تصارع للأنفاس، وعيناها تتوسلانه ورحمة مفقودة، لكن قلبه كان قد تحول إلى صخر صلد لا ينبض.

استمرت الليلة في نزيفها المظلم حتى سكن جسد منال تماماً على أرضية الصالة.

وقف رامي فوق الجثة، أنفاسه تتصاعد بجهد حاد، ويداه تتضرجان بأثر الجريمة. نظر إلى الساعة المعلقة على الجدار؛ كانت الشاشات تشير إلى منتصف الليل تماماً.

انتهى العاشر من يوليو... وتبددت معالم الرجل الذي كان يوماً زواجاً هادئاً وأباً رحيماً. أطفأ أنوار الصالة، وجلس في العتمة بجانب الجثة، يخطط لكيفية إخفاء أدلة هذه الليلة البشعة، ويبدأ رحلة الهروب من يد العدالة

حلّ السكون على الشقة مخيفاً وثقيلاً، كأن جدرانها امتصت صرخات الليلة وانطوت عليها. كان رامي يجلس على الأريكة المجاورة للجثة في عتمة الصالة، يراقب شعاعاً خافتاً من ضوء الشارع ينعكس على السقف. خفتت حدة الغضب العارم، وحل محلها برودٌ ذهني مرعب، عقليّة رجلٍ يعرف أن أي خطأ صغير الآن سيعني حبل الإعدام قبل أن يستكمل انتقامه لحياة أبنائه.

نظر إلى ساعته اليدوية؛ كانت العقارب تشير إلى الواحدة والنصف صباحاً. الوقت يمر بسرعة، ومع أذان الفجر ستدأ الحركة تدب في حي المشاية

قام رامي من مكانه بخطوات منتظمة ثابته. لم ينظر إلى وجه منال المسقاط على الأرض، بل اتجه مباشرة إلى المطبخ. أخرج أكياساً بلاستيكية كبيرة وقوية، ومطهرات كيميائية، وقفازات مطاطية كان قد اشتراها للبيت منذ فترة.

عاد إلى الصالة وبدأ تنفيذ خطته بإتقانٍ بارد:

أولاً: قام بتنظيف البقع وأثار الصراع على الأرضية والجدران باستخدام المطهرات القوية لمحو أي أثر بيولوجي أو بصمات متداخلة.

ثانياً: جمع كل أغراض منال الشخصية؛ حقيبتها اليدوية، هاتفها المحمول، أوراقها، وبعض ملابسها، ووضعها في حقيبة سفر كبيرة. كان يعلم أن البلاغ الذي سيعلنه لاحقاً يجب أن يبدو كأنها غادرت المنزل بكامل إرادتها بعد شجار زوجي.

ثالثاً: الحقيبة الملعونة... أخذ زجاجات عصير الفراولة الأربع المحقونة بالسم، وقام بتفريغ محتواها في مسحوق الغسيل والمياه المتدفقة في المرحاض، ثم غسل الزجاجات البلاستيكية جافاً وألقى بها في قمامة بعيدة خارج نطاق الحي.

رابعاً: نقل الجثة... استغل رامي ظلمة السلم الخلفي للبناية وشغور المواقف في هذا الوقت المتأخر من الليل. قام بنقل الجثة -بعد لفها بعناية فائقة لمنع أي تسرب وتعبئتها في صندوق سيارته الفسيح، ودون أن يلاحظه أحد من الجيران.

انطلق بالسيارة في هدوء تام عبر طرقات المنصورة الشبه خالية، متجهاً نحو منطقة نائية على أطراف المحافظة، حيث توجد أراضٍ زراعية ومشاريع بناء مهجورة يعلمها جيداً. هناك، وفي جوف الأرض المظلمة، دفن الجثة وإلى جانبها هاتفها المغلق وأغراضها، وردم التراب ودكه جلياً حتى عادت الأرض إلى طبيعتها، وكأن شيئاً لم يكن.

مع تباشير الفجر الأولى، كان رامي يعود بسيارته إلى حي "المشاية". قاد المركبة إلى مغسلة سيارات بعيدة لغسل الصندوق الخارجي والداخلي بالكامل.

دخل شقته مع أشعة الشمس الأولى. كانت الشقة تفوح برائحة المنظفات، وتلمع بنظافة تامة. فتح النوافذ ليدخل الهواء النقي، ثم توجه إلى الحمام، غسل وجهه بالماء البارد، وتأمل انعكاس صورته في المرآة.

لم تكن العينان تحملان أي أثر للخوف، بل كانتا جامدتين تماماً كعيون الموتى.

أخرج هاتفه المحمول، وكتب رسالة نصية قصيرة وأرسلها إلى رقم منال المغلق:

منال.. ارجعي البيت وخلينا نتكلم بدل الجنان اللي عملتيه وسيبك من القمص ده

كانت هذه أولى خطوات السيناريو الجديد الذي كتبه بدم بارد؛ سيناريو الزوج المكلوم الذي استيقظ ليجد زوجته قد اختفت بعد خلاف عائلي طفيف.

وضع الهاتف على الطاولة، وجلس يشرب كوباً من القهوة السادة، ينتظر مرور الوقت الكافي ليقوم بالخطوة التالية: إبلاغ الشرطة عن "اختفاء" زوجته منال

انقضت ثمانٍ وأربعون ساعة على ليلة العاشر من يوليو، كانت كفيلة بأن تحوّل الشقة في حي "المشاية" إلى المسرح الأول لرواية محبوكة بدقة. لم يترك رامي تفصيلاً صغيراً للصدفة؛ كانت الأغطية مرتبة، والستائر مرفوعة لتسمح لشمس الظهيرة بالنفاذ إلى الصالة، بينما جلس هو على الأريكة المجاورة للهاتف الأرضي، يرتدي ثياباً تجعدت أطرافها ليظهر بمظهر من لم يذق طعم النوم منذ أيام.

في صباح اليوم الثاني عشر من يوليو، وقف رامي أمام مكتب قسم شرطة ثاني المنصورة. كان وجهه شاحباً، وعيناه غائرتين تحملان مسحة تصنعها ببراعة من القلق والضياع.

جلس أمامه أمين الشرطة يتفحص ملامحه، قبل أن يفتح محضر البلاغ الرسمية ويسأله بنبرة روتينية:

اسمك بالكامل يا أستاذ.. وإيه تفاصيل البلاغ؟

أخذ رامي نفساً متهدجاً، وتحدث بنبرة يرتجف فيها الصوت بقدر حذر ومحسوب:

رامي عبد الحميد.. محرر البلاغ عن غياب زوجتي، منال السيد. خرجت من البيت من يومين بعد خلاف زوجي بسيط بيننا، وما رجعتش لحد دلوقتي وموبايلها مقفول

دبّ أمين الشرطة أصابعه على المكتب، وسأله:

الخلاف كان بسبب إيه يا أستاذ رامي؟ وسبق لها سابت البيت قبل كده؟

رد رامي بسرعة مستحضراً السيناريو المفصل:

خلافات عادية حول مصاريف البيت واهتمامي بأولادي من زوجتي الأولى.. مشادة كلامية قاطعتني فيها، وسابت الشقة وهي غضبانة وأنا افتكرت إنها راحت بيت أهلها أو عند واحدة من صاحباتها. بس

لما سألت أهلها قالوا إنها متواصلتش معاهم، وموبايلها غير متاح من ساعتها

سُجلت الكلمات في المحضر كلمة كلمة. بالنسبة للأوراق الرسمية، كان الأمر يبدو كبلاغ اختفاء تقليدي يتكرر يومياً في أروقة القسم: زوجة غاضبة تركت منزل الزوجية إثر مشاجرة عائلية.

لكن المحضر، فور تحريره، انتقل إلى المكتب الأعلى في البناية... مكتب المباحث الجنائية بمديرية أمن الدقهلية.

في الغرفة ذات الإضاءة الدافئة والمكتب الخشبي العريض، كان المقدم يونس يتصفح المحضر بعينين لا تفوتهما التفاصيل. لم يكن المقدم يونس ضابطاً تقليدياً؛ كان يُعرف في أروقة المديرية بذكائه الصارم وقدرته على التقاط الخيوط الخفية في القضايا التي تبدو بسيطة في ظاهرها.

رفع يونس عينيه عن الورق ونظر إلى رامي الذي كان يجلس أمامه في مكتب التحقيق، يسند رأسه بين يديه بتعب.

قال المقدم يونس بصوت هادئ لكنه يزن كل كلمة:

أستاذ رامي.. المدام أخدت معاها أي أوراق شخصية؟ شنطة سفر؟ هدوم؟

:هز رامي رأسه بالرفض والتأثر الظاهري

أنا لما فتشت دولابها لقيت بعض هدومها الخفيفة مش موجودة، وشنطة سفر صغيرة ناقصة.. ده اللي خلاني افتكر في الأول إنها سابت البيت بكامل إرادتها وراحت تقعد في مكان تهدي أعصابها فيه

ساد الصمت الغرفة لثوانٍ. قام المقدم يونس من خلف مكتبه، وسار بخطوات بطيئة نحو النافذة المطلة على الشارع الرئيسي، ثم التفت ونظر إلى رامي بنظرة نافذة كالشفرة:

تمام يا أستاذ رامي.. هتعمل تحرياتنا، وهنراجع كاميرات المراقبة في الشارع المحيط بالبيت وتفريغ المكالمات الأخيرة على هاتفها

لم تهتز رموش رامي. كان يعلم أنه مسح كل أثر، وأن مسار الكاميرات تم حسابه بعناية، وأن هاتفها دُفن على عمق مترين تحت أراضٍ نائية خارج المدينة.

:ابتسم رامي ابتسامة حزينة متكسرة وقال

يا ريت يا فندم.. أنا خايف عليها، ومش عارف أقول إيه لابنها الصغير لما يسأل عنها

خرج رامي من مبنى المديرية بخطوات ثابته، تاركاً خلفه انطباع الزوج المصدوم المكلوم. غير أنه لم يدرك أن العينين اللتين راقبتا

خروجه من شباك المكتب لم تقتنعا بالقصة كاملاً، وأن لعبة الشطرنج بينه وبين المقدم يونس قد بدأت للتو

مر أسبوعٌ كامل على بلاغ الاختفاء. كانت مدينة المنصورة غارقة في حرارة يوليو الخانقة، بينما كانت الأجواء داخل مكتب المقدم "يونس" بمديرية أمن الدقهلية أكثر سخونة وتوتراً.

أمام المكتب الخشبي العريض، كانت التفاصيل الصغيرة تنهمر كقطع الأحجية التي لا تتطابق. تفريغ سجلات الهاتف الخاص بمنال أظهر أن آخر مكالمة استقبلتها كانت في ظهيرة العاشر من يوليو، وكانت مكالمة قصيرة جداً من هاتف رامي، يعقبها اختفاء تام للإشارة وتوقف شريحة الاتصال عن العمل في نفس اليوم ونفس النطاق الجغرافي.

جلس المقدم يونس على كرسيه، يقلب بين يديه تقرير التحريات الأولية، بجانبه الملازم أول حسام.

قال يونس وهو يشير بإصبعه على السطور:

خد بالك يا حسام.. الزوج بيقول إنها خرجت بعد مشادة كلامية بكامل إرادتها وأخدت شنطة هدوم. لكن كاميرات المحلات اللي في الشارع الرئيسي المحيط بالمبنى لقطت حركة رامي وهو طالع ونازل أكتر من مرة ليلة 10 يوليو، وفي المرة الأخيرة خرج بسيارته في ساعة متأخرة جداً بعد نص الليل ورجع قبل الفجر. في حين مفيش

أي كادر لكاميرات الشارع بيظهر منال وهي بتخرج من بوابة العمارة برجليها

رد الملازم حسام بتردد:

يمكن خرجت من السلم الخلفي أو طريق تاني مش متغطي بالكاميرات يا فندم؟

هز يونس رأسه بالرفض وهو ينظر من النافذة:

السلم الخلفي بيفتح على زقاق ضيق، وفي كاميرا سوبرماركت هناك سجلت خروج عربية رامي بس.. منال مظهرتش. وبعدين، اختفاء مفاجئ بالسرعة دي لست نرجسية بتحب الظهور والتواجد؟ الستات اللي طبيعتهم كده لما يغضبوا بيروحوا بيت أهلهم عشان يعملوا شو ويكبروا الموضوع، مش بيختفوا في الظرف مغلق من غير ما يسيبوا أثر ولا يرنوا على قراييهم

في هذه الأثناء، كان رامي يجلس في صالة شقته بحي "المشاية". المكان هادئ، لكنه هدوء مقلق. كان يحاول ممارسة حياته بشكل طبيعي؛ يأخذ طفله "مازن" لزيارة الجيران، ويرد على اتصالات أقارب منال القلقين بنفس نبرة الحزن والأسى المصنوعة:

والله يا جماعة دورت عليها في كل مكان.. إن شاء الله تهدا وترجع، أنا عملت بلاغ وفي انتظار التحريات

لكن الداخل كان مختلفاً. كان رامي يشعر بشيء يسري تحت الجلد، بذور ارتياب لا تزول.

في مساء ذلك اليوم، جرس الباب رنّ بنغمات منتظمة. فتح رامي الباب ليجد المقدم يونس يقف أمامه بملابسه المدنية، وابتسامة هادئة غير مريحة ترتسم على وجهه.

قال يونس بأسلوب ودود:

مساء الخير يا أستاذ رامي.. أسف للإزعاج في وقت زي ده، بس كنا بنستكمل بضع نقاط في التحريات وحبيت أعدي عليك بنفسي وأشوف لو في جديد

تراجع رامي إلى الخلف وفتح الباب بثبات يحسد عليه:

أهلاً يا فندم.. اتفضل، البيت بيتك. في أي أخبار عن منال؟

دخل يونس الصالة بخطوات بطيئة، وعيناه تتفحصان المكان بدقة متناهية؛ زوايا الأرضية، السجاد الحديث، الرائحة القوية للمطهرات المعطرة التي لا تزال تملأ المكان رغم مرور أيام.

توقف يونس عند طاولة الوسط، ونظر إلى رامي بثبات:

لسه مفيش جديد قاطع يا أستاذ رامي.. بس الغريب إننا لما سألنا طليقتك، الأستاذة راندا، عن تحركاتك يوم 10 يوليو، قالت إنك كنت عندها الصبح وجبت لها عصير للأولاد وبعدين مشيت متوتر... وبعدها مظهرتش طول اليوم

جمُدت عينا رامي لكسر من الثانية، لكنه استرد توازنه فوراً وقال بنبرة هادئة:

فعلاً.. أنا روحت أطمن على الأولاد الصبح، وده طبيعي. وكان الخلاف مع منال بيلوح في الأفق بسبب اهتمامي بيهم. راندا طليقتي ومش على وفاق مع منال، طبيعي تشوف أي توتر عندي وتفسره بطريقتها

اقترب يونس منه خطوة، وقال بصوت خفيض ونبرة مليئة بالإيحاء:

طبعاً.. بس الأغرب يا أستاذ رامي، إننا لقينا قطة ميتة في الزقاق اللي ورا بيت راندا بنفس التاريخ.. والتشريح المبدئي بيسجل إنها ماتت بسم سريع المفعول

ساد صمتٌ قاطع في الصالة. استقرت عينا الضابط على وجه رامي تنظران إلى كل حركة في عضلاته، بينما شعر رامي بأن حبل الخناق بدأ يتكون من هوايات الخفاء، وأن اللعبة لم تعد مجرد بلاغ اختفاء... بل بدأت تتجه نحو الجريمة

ساد الصمت أرجاء الصالة كأنه ثقوبٌ سوداء تبتلع الأكسجين. استقرت نظرات المقدم يونس الحادة على عيني رامي، يراقب أدق

رفّة جفن أو تذبذب في أنفاسه، منتظراً أن تسقط الورقة الأولى من قناعه الصامد.

لكن رامي، الذي كان قد عبر برزخ الخوف ليلة العاشر من يوليو ولم يعد لديه ما يخسره، لم يرمش. رسم على وجهه نظرة تعجب واستنكار جرى التدريب عليها في أعماق عقله ألف مرة، ثم قال بنبرة هادئة تتداخل فيها دهشة الرجل البسيط:

قطة ميتة بـ سُم في شارع راندا يا فندم؟ وأنا إيه علاقتي بالقطة دي؟ حضرتك عارف إن الشوارع الجانبية في المنطقة هناك مليانة زبالة وسموم مبيدات للشركات والمحلات.. هو كل قطة تموت في المنصورة هكون أنا السبب فيها؟

لم تتحرك ملامح يونس، بل ظل يدرس ثبات رامي البارد. هز رأسه ببطء وابتسم ابتسامة باهتة لا تصل إلى عينيه:

عندك حق يا أستاذ رامي.. المنصورة مليانة قطة وشوارع. بس لما تكون القطة ميتة عند البيت اللي فيه أولادك الأربعة، وفي نفس اليوم اللي المدام تختفي فيه بعد ما كانت بتشتكي للجيران وأختها إنها قلقانة من اهتمامك بالأولاد.. النقط بتتدخل ببعضها غصب عننا

خطا رامي خطوة نحو الضابط، واستدار ليرتدي عباءة الضحية المستفزة، وقال بصوت حاد متماسك:

يا سيادة المقدم.. أنا مراتي غايبة بقالها أسبوع، وبدل ما التحريات تدور عليها وعلي أثرها، جايين تحاسبوني على قطة وعلى شكوك

طليقة بيني وبينها قضايا ونفقات؟ لو حضرتك شايف إن عندي أي مخالفة، اتهمني رسمياً.. غير كده، أنا طالبتكم بحق زوج بيتدمر وبيته بيضيع ومراته مش معروف لها طريق

ألقى يونس نظرة سريعة أخيرة على أركان الصالة، ثم حرك نظره نحو الأريكة التي رُتبت وسائدها بدقة، وقاطعه بنبرة واثقة هادئة:

التحريات ماشية في كل الاتجاهات يا أستاذ رامي.. متقلقش، حقك وحقها وحق القانون هيرجع. بس افتكر ديماً.. الجريمة الكاملة ما فيش منها غير في الروايات. في الواقع، القاتل دايماً بيسيب قطعة شطرنج منسية على الرقعة وهو فاكر إنها مش ذات قيمة

التفت المقدم يونس وسار نحو الباب بخطوات واثقة، أدار المقبض، ثم التفت قبل أن يخرج وقال:

آه، صح.. الملازم حسام هيطلبك بكرة في المديرية علشان تراجع أرقام المكالمات الخاصة بأصدقاء منال في القاهرة. سلام يا أستاذ رامي

أغلق الباب خلفه بهدوء.

في تلك اللحظة فقط، سمح رامي ليده بأن ترتجف. اتكأ على الطاولة الكبيرة، وأخرج زفيراً حارقاً من صدره. كان يتصبب عرقاً بارداً، ورغم ثباته أمام يونس، إلا أنه أدرك شيئاً واحداً مرعباً:

المقدم يونس لا يتعامل مع القضية كحالة اختفاء عادية... إنه يتعامل معها كـ جريمة قتل، الخناق يضيق، والأدلة التي ظن رامي أنه دفنها عميقاً تحت الأرض بدأت تطفو على السطح، قطعةً بعد قطعة

في صباح اليوم التالي، كان مبنى مديرية أمن الدقهلية يموج بالحركة الاعتيادية، لكن داخل مكتب المقدم يونس كان الصمت هو السائد. كانت ملفات القضية مفتوحة على طاولته، وأمامه لوحة بيضاء كُتب عليها بخط عريض: "اختفاء منال السيد - 10 يوليو

جمع يونس فريق التحقيق المكون من الملازم حسام واثنين من أمناء الشرطة المشهود لهم بالدقة. ألقى عليهم نظرة حادّة ثم بدأ يضع علامات باللون الأحمر على الخريطة المعلقة.

قال يونس بنبرة حازمة:

رامي ممثل من طراز فريد.. ثباته انفعالي مش طبيعي، وكل سؤال جوابه متفصل ومحسوب بالمللي. بس الثبات الزائد عن حده في الموقف ده هو أكبر دليل إدانة! زوج مراته غايبة بقالها أكتر من أسبوع ومش معروف لها طريق، مفروض يكون متوتر، بيصرخ، بيلف على المستشفيات وأقسام الشرطة.. لكن رامي قاعد في بيته ومستنينا إحنا اللي نتحرك

تحدث الملازم حسام وهو يضع ملفاً جديداً على الطاولة:

يا فندم، راجعنا كشوفات شركات الاتصالات وتتبعنا شريحة منال. الشريحة اتقتلت تماماً يوم 10 يوليو الساعة 11 مساءً في نطاق شبكة حي المشاية.. يعني الموبايل إما أتقفل أو اتدمر في الشقة أو قريب منها جداً

أومأ يونس برأسه متابعاً:

جميل.. وماذا عن خط سير عربية رامي في الليلة دي؟

أخرج الملازم حسام تفريغ كاميرات المراقبة الخاصة بالمرور وبوابات الطرق:

كاميرات حديقة الأطفال والسوبرماركت اللي في الشارع الخلفي لقطت عربية رامي وهي بتتحرك الساعة 1:45 بعد نص الليل. الكاميرات جابته وهو طالع على طريق المنصورة - دكرنس السريع، وغاب حوالي ساعتين ورجع الشقة الساعة 4 الصبح. وفي الصباح الباكر، الساعة 7، راح مغسلة سيارات في منطقة جديلة وغسل العربية بالكامل، حتى الصندوق الخلفي غسله بكيماويات جافة

ارتسمت ابتسامة باردة على وجه المقدم يونس. وقف من مقعده وضرب بيده على الملف:

غسيل صندوق العربية بالكيماويات السريعة الساعة 7 الصبح بعد خروجه في أنصاص الليالي؟ رامي مكنش بيفسح العربية يا حسام.. أو بقعة دم رامي كان ينقل الجثة بيمسح أي أثر

تابع يونس وهو يتجه نحو الخريطة:

نطاق طريق دكرنس السريع فيه أراضي استصلاح ومناطق بناء مهجورة ومصارف مائية ملهاش حصر. هو دفنها أو رماها هناك في المربع ده. حسام.. هتاخد طقم التحريات وتفتش في كل الكاميرات المتاحة على طول الطريق ده، وتحدد لي بالضبط العربية وقفت فين ليلة 10 يوليو. ونزل فريق جنائي متخصص يراجع مغسلة السيارات في جديلة ويشوف لو فيه أي مادة بيولوجية اتبقت

في هذه الأثناء، كان رامي يجلس في مكتبه بالعمل، يحاول إظهار التماسك أمام زملائه الذين يواسونه في أزمته. لكن عقله كان يعمل كالمحرك المشتعل.

أخرج هاتفه المحمول ونظر إلى الشاشة. كانت رسائل الواتساب الصادرة منه لـ "منال" تتراكم بلا رد، كلها رسائل نصية استعراضية كتبها بعناية لتبدو كأنه يبحث عنها.

مسح عرقاً بارداً تكون على جبهته. كان يظن أن إخفاء الجثة في أرض نائية بعيدة قد نهى الأمر، لكنه بدأ يشعر بظلال المباحث وهي تتجمع حوله، وبدأت شباك المقدم يونس تلتف حول عنقه بهدوء، خيطاً بعد خيط

بدأت حرارة الصيف الخانقة في المنصورة تنعكس على نفسية رامي كجلادٍ يجلده ببطء. لم تعد الشقة في حي "المشاية" الملاذ الآمن

الذي لجأ إليه بعد ليلة العاشر من يوليو، بل تحولت إلى سجن من الجدران الصامتة التي تطارده فيها الذكريات والظلال.

في صباح أحد الأيام، وأثناء خروجه من البناية لشراء بعض المستلزمات، لاحظ رامي وجود سيارة مدنية بيضاء تقف على مسافة غير بعيدة من مدخل العمارة. كان يجلس فيها رجلان يرتديان ملابس بسيطة، لكن عيونهما كانت ترقب تحركاته بتركيز لا يُخطئه رجلٌ يعيش في حالة تأهب دائم.

أدرك رامي على الفور: أجهزة المباحث تضعه تحت المراقبة اللصيقة.

تظاهر بعدم الانتباه، وسار بخطوات منتظمة نحو الدكان القريب. غير أن النظرات اللامبالية التي كان يتلقاها من جيرانه في الحي بدأت تتغير. الشائعات في المنصورة تسري كالنار في هشيم الجفاف؛ الأخبار عن اختفاء منال المفاجئ، وتردد رجال الشرطة بزيّهم المدني على البناية، والأسئلة الدقيقة التي وجهها الملازم حسام لحارس العقار والجيران، كلها جعلت الأصابع تشير إليه في خفاء.

حتى حارس العقار، الذي كان يحييه بكل احترام سابقاً، أصلحت تحيته مقتضبة، وعيناه تتهربان من النظر المباشر في وجه رامي.

في الوقت نفسه، كانت راندا تجلس في صالة منزلها، وتحتضن طفلتها "جنى"، بينما كان "عمر" يجلس بجانبها ينظر إلى الأرض بصمت.

أحست راندا بنغزة قوية في قلبها؛ كانت تعرف رامي أكثر من أي شخص آخر. عشر سنوات من الزواج كانت كفيلة بأن تجعلها تقرأ ما خلف صمته. هي لم تكن تشك في أنه رجل شرير بالطبيعة، لكنها كانت تعلم يقيناً إلى أي مدى يمكن أن يصل عندما يتصل الأمر بأطفاله الأربعة.

رن هاتفها، وكان المتصل هو المقدم يونس.

أخذت راندا نفساً عميقاً وأجابت بصوت هادئ متزن:

أهلاً يا سيادة المقدم

قال يونس بصوت جاد ومحترم:

مساء الخير يا مدام راندا.. أسف للإزعاج، بس كنت حابب أسألك سؤال واحد وأتمنى تجاوبيني بمنتهى الصراحة. هل رامي يتكلم معاكي عن منال أو عن مشاكلها مع الأطفال في الأيام اللي سبقت يوم 10 يوليو؟

صمتت راندا لثوانٍ. عبرت أمام عينيها ذكريات السنوات العشر، والبيت الصغير الذي انهار، ثم نظرت إلى أطفالها الأربعة الجالسين حولها. كانت تعلم أن أي كلمة قد تدين رامي أو تبرئه، لكنها كانت تخشى التورط في شبكة لا تعرف نهايتها.

قالت بصوت ثابت:

يا سيادة المقدم.. رامي كان متوتر جداً الفترات الأخيرة بسبب مشاكل بيته الجديد، وده شيء مش سر. بس هو عمره ما اتكلم معايا في تفاصيل تخص منال شخصياً، ولا أنا سمحت له. كل اللي كان بيننا هو مصاريف الأولاد ومواعيد زيارتهم

ساد الصمت من طرف يونس على الخط لبرهة، ثم قال بنبرة خفية المعاني:

فاهم يا مدام.. بس خليكي فاكرة، لو افتكرتِ أي تفصيلة مهما كانت صغيرة، تخص يوم 10 يوليو تحديداً أو المشروبات اللي جابها للأولاد، يا ريت تبلغيني فوراً. ده لصالح حماية أولادك

أغلقت راندا المكالمة، وجلست مكانها ترتجف. وضعت يدها على صدرها وتمتمت بذهول: ربنا يستر يا رامي.. أنت عملت إيه في نفسك وفينا؟

في مساء ذلك اليوم، كان رامي يجلس في ظلام الصالة بشقته، يرقب الشارع من خلف الستائر المعتمة. رأى السيارة البيضاء ما زالت تربض في مكانها.

لم يعد الخوف ينبع من إمكانية القبض عليه، بل من السقوط الوشيك لحصنه المنيع. كان ينظر إلى صور أطفاله الأربعة المثبتة على مكتبه، ويحدث نفسه بصوت خفيض يملؤه السواد:

عملت كده علشانكم.. علشان تفضلوا عايشين. حتى لو حبل الإعدام لف حوالين رقبتي، المهم إن السم ملمسش شفاهكم

أغلق عينيه، ودون أن يدري، كانت الأيام تتناقص بسرعة، ودائرة يونس الضيقة تطبق على أطراف شبكته، لتسحبه نحو المصيدة الأخيرة

توالت الأيام كأحجار الدومينو المتساقطة، وأصبح الهواء داخل أروقة المباحث مفعماً برائحة الحقيقة التي تتكشف شيئاً فشيئاً. لم يكن المقدم يونس يحتاج إلى معجزة، بل كان يتتبع منهجاً علمياً صارماً، يجمع القطع المفقودة ويربطها ببعضها دون عجلة.

في منتصف شهر أغسطس، ورد تقرير المعمل الجنائي الخاص بتفريغ المادة الكيميائية المغسولة من صندوق سيارة رامي، ومرفق به تقرير تحليل الآثار البيولوجية المجهرية من المغسلة الواقعة بمنطقة جديلة.

كان المقدم يونس يجلس خلف مكتبه، وبجانبه الملازم حسام. فتح يونس مظروف التقرير المغلق بشمع أحمر، وقرأ السطور بتركيز شديد، بينما كانت عيناده تتسعان برضا حذر.

قال الملازم حسام بلهفة:

التقرير فيه إيه يا فندم؟

رفع يونس رأسه ونظر إليه بثبات:

المعمل الجنائي استخدم تقنية الضوء الفوق بنفسجي المتطور والمسح الجيني الجزيئي.. ورغم إن الصندوق اتغسل بكيماويات مجهري جافة قوية، إلا إنهم قدروا يستخلصوا بقايا حمض نووي من الشقوق الضيقة لبطانة البطاحات الخلفية للصندوق. العينة متطابقة تماماً مع البصمة الوراثية للأنسجة المفحوصة من أدوات التجميل الخاصة بالمتهمة الغائبة.. منال السيد".

وقف الملازم حسام مشدوهاً:

يعني أثر حمضها النووي موجود في صندوق العربية وهي مقتولة أو مصابة بسائل بيولوجي تسرب منها؟

رد يونس وهو يغلق الملف بحدة:

بالظبط! وده ينفي تماماً رواية رامي عن إنها سابت البيت بكامل إرادتها ومشت برجليها. منال كانت جوة صندوق عربية رامي في ليلة 10 يوليو.. والآن تحول البلاغ رسمياً من اختفاء إلى تحقيق في جريمة قتل عمد

في ذات الوقت، كان الملازم حسام يتتبع خيطاً آخر لا يقل أهمية: استجواب العمال في المحلات التجارية المجاورة لحي المشاية والمنطقة التي تقيم فيها الزوجة الأولى "راندا".

توصل التحري إلى إفادة مهمة من صيدلي يعمل في صيدلية قريبة من شقة رامي. أفاد الصيدلي بأن رامي حضر قبل ليلة العاشر من يوليو بأيام، واشترى مادة مطهرة شديدة التركيز ومستلزمات تنظيف طبية لا تُستخدم عادة في الأغراض المنزلية البسيطة.

علاوة على ذلك، استطاع فريق البحث الجنائي الحصول على لقطة دقيقة من كاميرا مراقبة على طريق "المنصورة - دكرنس" السريع، أظهرت سيارة رامي وهي تتوقف لدقائق عند مدخل إحدى المناطق الزراعية المهجورة والمحيطة بمشروع بناء متوقف، في حدود الساعة الثالثة صباحاً ليلة 10 يوليو.

في مساء ذلك اليوم، صدر أمر استدعاء جديد لرامي للقفز به داخل المصيدة.

دخل رامي مكتب المقدم يونس في مديرية الأمن، متصنعاً الهدوء والوقار المعتاد. جلس على الكرسي واستند على المكتب بنظرات هادئة:

خير يا سيادة المقدم؟ في أي معلومات جديدة وصلتم ليها عن منال؟

لم يرد يونس فوراً. أخرج ملف القضية، ووضعه أمام رامي ببطء، ثم أخرج صورة تقرير المعمل الجنائي ووضعها فوق الملف.

قال يونس بنبرة خفيضة، تحمل كل ثقل الحقيقة:

رامي.. إحنا ما بقيناش بندور على منال وهي عايشة. إحنا بنجمع الأدلة اللي هتوديك للمحكمة بتهمة قتلها وتغيب جثتها

جمُد رامي في مكانه، وشعر بدقات قلبه تضرب في أذنيه كالمطارق، لكنه حاول الحفاظ على ثباته:

أنت بتقول إيه يا فندم؟ قتل إيه وأدلة إيه؟ أنا مراتي غايبة وأنا اللي ممتنع عن

قاطعه يونس بنبرة قاطعة كالحديد:

بقايا الحمض النووي الخاص بمنال متواجدة في صندوق عربيتك يا رامي! اتغسلت بكيماويات شديدة في مغسلة جديلة الساعة 7 الصبح يوم 10 يوليو، وعربيتك كانت واقفة في منطقة زراعية على طريق دكرنس الساعة 3 الفجر في نفس الليلة! القطة اللي ماتت بالسم

عند بيت ولادك، وعصاير الفراولة اللي اشتريتها في نفس اليوم.. كل الخيوط دي اتقفلت عليك تماماً

انقطعت أنفاس رامي. شعر وكأن الأكسجين قد سُحب بالكامل من الغرفة. تلاشت الصلابة المتصنعة، وشحب وجهه حتى استحال إلى لون الرماد.

شهدت الغرفة سكتة قاتلة؛ سقط الحصن الذي بناه بدم بارد، وانهارت كذبة الاختفاء على رأسه، ليتأكد أن السقوط لم يعد سوى مسألة وقت

تجمّد الزمن داخل مكتب المقدم يونس. كانت برودة التكييف تمتزج بسخونة التوتر القاتل، بينما جلس رامي مشدوهاً، شاحب الوجه، وزيغ عينيه يفضح الانهيار الداخلي الذي حاول مداراته طوال أسابيع

طالع رامي الأوراق الممدودة أمامه على المكتب: تقرير البصمة الوراثية ، تفريغ كاميرات المراقبة على طريق دكرنس، وإفادة مغسلة السيارات. كانت الأرقام والخطوط البيانية تتحول في ناظريه إلى مشانق صغيرة تلتف حول عنقه

كسر المقدم يونس الصمت الموحش، قائلاً بصوت هادئ لكنه قاطع كالسيف:

اللعبة انتهت يا رامي. ما بيكدبش، والكاميرات ما بتجاملش. أنت خرجت جثة منال من الشقة ليلة 10 يوليو في صندوق العربية،

ودفنتها في المربع الزراعي اللي على طريق دكرنس. كل التفاصيل القتيلة دي تحت إيدينا دلوقتي".

اتسعت عينا رامي، وحاول أن يفتح فمه ليتكلم، أن ينسج كذبة جديدة أو يدعي جهله بهذه الأدلة، لكن حباله الصوتية خانته. خانه الثبات الذي ارتداه كدرعٍ طوال أسبوعين.

استند بكتفيه إلى الخلف، وسقط رأسه بين يديه. بدأت أطرافه ترتجف بشدة، وصدره يعلو ويهبط بأنفاس متلاحقة ومختنقة. لم تكن دموعه دموع ندم على الجريمة، بل كانت دموع السقوط والانكشاف.

اقترب منه الملازم حسام ووضع يده على كتفه بصرامة، بينما واصل المقدم يونس كلامه بنبرة خالية من الشماتة ولكنها مليئة بالحسم:

أنت كنت فاكر إنك خططت للجريمة الكاملة، مسحت العصير، وغسلت العربية، ودفنت الموبايل.. بس نسيت إن الدم بيصرخ، وإن حق الولاد والأبرياء مابيروحش. القوة الجنائية تتحرك فوراً معاك على طريق دكرنس لإنهاء استخراج الجثة

رفع رامي رأسه ببطء. كانت هيبته المتصنعة قد تلاشت تماماً، وحل محلها وجه رجل محطم، أكلته الاختيارات الخاطئة والغيرة والانتقام.

:قال رامي بصوت مبحوح ومكسور، يخالطها بكاء مكتوم

أنا... أنا ما كنتش عايز أقتلها يا سيادة المقدم... هي اللي اضطرتني... هي اللي كانت عايزة تحرمني من ولادي... هي اللي حاولت تقتلهم!"

:نظر إليه المقدم يونس بعينين متفحصتين، وقال

الكلام ده تقوله في التحقيقات الرسمية قدام النيابة. اعترف بياض وجهك باللي عملته، وقولنا الجثة فين بالضبط

:أخذ رامي نفساً عميقاً كمن يستسلم للغرق، وأومأ برأسه ببطء

هقولك على كل حاجة... هقولك مكانها

في تلك اللحظة، امتدت يد الملازم حسام لتضع الأغلال الحديدية (الكلابشات) في معصمي رامي. أحدث معدن الأغلال صوتاً حاداً أعدم آخر أمل لرامي في الهروب، صوتاً أعلن رسمياً نهاية رحلة الخفاء، وبداية الفصل الأخير من المحاكمة والسقوط

في تمام الساعة الثالثة فجراً، انطلقت مأكول الحركة من أمام مديرية أمن الدقهلية. سيارتان من سيارات المباحث التابعة للشرطة، تتبعهما سيارة الإسعاف وسيارة الفنيين الجنائيين، تتسرب بخفة في شوارع المنصورة الساكنة متجهة نحو طريق "المنصورة - دكرنس" السريع.

داخل إحدى سيارات المباحث، كان رامي يجلس في المقعد الخلفي بين اثنين من أمناء الشرطة، مقيد اليدين بالأغلال الحديدية. كان وجهه شاحباً كالموتى، وعيناه الغائرتان تتأملان الطريق عبر الزجاج المعتم. نفس الطريق الذي سلكه ليلة العاشر من يوليو، ولكنه هذه المرة لا يسلكه لدفن سره، بل لينبشه أمام العالم.

كان المقدم يونس يجلس في المقعد الأمامي بجانب السائق، يرتقب حركة الطريق عبر النافذة. التفت إلى الخلف ونظر إلى رامي بثبات:

قربنا يا رامي.. حدد الشارة أول ما ندخل المنطقة الزراعية

هز رامي رأسه بصمت. كان صوته قد ضاع في دهاليز الخزي والندم.

توقفت القافلة عند مدخل طريق ترابي غير ممهد، يقع خلف مشروع بناء مهجور تحيط به أراضٍ استصلاح واسعة. أضاءت كشافات السيارات القوية المكان، فكشفت عن أشجار قطن باردة وزوايا أتربة متراكمة.

نزل الجميع. اقتيد رامي وهو يترنح في خطاه، بينما تسلحت عناصر الجنايات بأدوات الحفر والمشاعل الضوئية.

سار رامي بخطوات ثقيلة نحو زاوية منخفضة تقع خلف سور مبنى خرساني لم يكتمل، وتوقف فجأة. أشار بيده المكبشة نحو بقعة من الأرض يبدو أن التربة فيها قد أُعيد تسويتها بغير انتظام.

قال بصوت مبحوح وخفيض:

هنا... دفنتها هنا يوم 10 يوليو الفجر

أعطى المقدم يونس إشارته للفريق الجنائي. بدأ العمال والحراس بالحفر بحذر دقيق. كانت أصوات الخفافيش وحفيف الرياح الليلية تعزف لحناً جنائزياً يلف المكان بالرهبة.

بعد نصف ساعة من الحفر المستمر، ارتطم حد الفأس بشيء صلب، وتصاعدت رائحة الموت القاسية من جوف الأرض.

تراجع الحفارون خطوة إلى الخلف، واقترب الطبيب الشرعي ومعه الضباط. أزيلت الأتربة الأخيرة لتكشف عن جثة ملفوفة بغطاء بلاستيكي أسود سميك، أُغلق بأحكام بشرائط لاصقة.

وقف المقدم يونس ينظر إلى الجثة، ثم التفت إلى رامي الذي أدار وجهه بعيداً ولم يستطع الاحتمال، وبدأ يجهش ببكاء هادئ ومكسور.

قال يونس بنبرة حازمة:

انتهى السحر يا رامي.. السر اللي افتكرت إنه اندفن تحت التراب رجع للدنيا، وعين العدالة شافت كل حاجة

تم استخراج الجثة ونقلها بحرص شديد إلى سيارة الإسعاف المتجهة نحو مشرحة مستشفى المنصورة الدولي لإعداد التقرير الطب الشرعي النهائي، بينما أُعيد رامي إلى سيارة المباحث، مستسلماً لمصيره ومدركاً أن رحلة الخفاء قد انطوت، ولم يبقَ منها سوى الوقوف أمام منصة القضاء

تفوحت في أروقة مشرحة مستشفى المنصورة الدولي رائحةُ المطهرات الحادة والموت البارد. كانت الإضاءة النيون البيضاء تُسلط ضوءاً جافاً على الطاولة الفولاذية التي وُضعت عليها الجثة المستخرجة من أراضي طريق دكرنس.

وقف المقدم يونس وبجانبه الملازم حسام، بينما كان الطبيب الشرعي ينهي فحصه المبدئي. أزاح الطبيب الغطاء عن بقايا الجثة بحرص، ثم التفت إلى يونس وأومأ برأسه تأكيداً:

الإصابات الظاهرة على الجمجمة والرقبة بتبين تعرض الضحية لكسور حادة في الفقرات العنقيدية نتيجة ضربة بآلة صلبة ورضوض مكثفة.. الأنسجة المتبقية بتأكد إن الوفاة حصلت ليلة 10 يوليو تقريباً، تماماً زي ما الجاني اعترف

أخذ المقدم يونس نفساً عميقاً، ثم التفت إلى الملازم حسام:

التقرير ده ينضم فوراً لمستندات القضية.. النيابة العامة مستنية في مديرية الأمن علشان يبدأ التحقيق الرسمي وتسجيل اعتراف رامي بالصوت والصورة

في شقة راندا، كان الهدوء مخيفاً. كانت جدران الشقة التي شهدت أحسن سنوات رامي تبدو اليوم وكأنها تشهد على اندحاره الأخير.

كانت راندا تجلس في الصالة، وبجوارها أختها، بينما كان أطفالها الأربعة في الغرفة المجاورة. التلفاز في الزاوية كان يعرض بثاً إخبارياً عاجلاً لوسائل الإعلام المحلية:

الأجهزة الأمنية بمحافظة الدقهلية تنجح في كشف غموض مقتل سيدة في المنصورة، وتلقي القبض على زوجها بعد استخراج جثتها المدفونة على طريق دكرنس

انقبض قلب راندا، وسقطت الدموع من عينيها في صمتٍ جريح. لم تكن تبكي على الرجل الذي طلقها وتخلى عنها وعن أبنائها، بل كانت تبكي على الحب القديم الذي دهسته العاصفة، وعلى أطفالها الأربعة الذين سيحملون طوال حياتهم عار أن أباهُم قاتل ينتظر حبل الإعدام.

دخل "عمر" الصالة بخطوات ثقيلة، وعيناه ممتلئتان بالدموع. نظر إلى أمه وقال بصوت يرتجف:

ماما.. هو بابا بجد عمل كده؟ هو مش هيرجع تاني خلاص؟

ضمت راندا ابنها الأكبر إلى صدرها بصلابة أم تحاول حماية ما تبقى من حطام بيتها، وقالت بنبرة خفيضة ملؤها الحزن:

أبوكم اختار طريقه يا عمر.. ادعوا له ربنا يغفر له، وادعوا لنفسكم بالستر

في غرفة التحقيق بمقر النيابة العامة بمديرية الأمن، كان رامي يجلس أمام وكيل النائب العام. أجهزة التسجيل والميكروفونات موجهة نحو وجهه الشاحب، والأغلال الفولاذية تتلألأ في معصميه.

قال وكيل النائب العام بصوت جاد ورسمي:

اسمك، سنك، وعملك.. واذكر تفصيلياً ما حدث في ليلة العاشر من يوليو

بلع رامي ريقه الجاف، وأغمض عينيه لثوانٍ، مسترجعاً تفاصيل الليلة التي دمرت حياته للأبد. ثم فتح عينيه وبدأ يتحدث بصوت منكسر، ينساب منه الاعتراف كاملاً دون زيف:

أنا اسمي رامي... يوم 10 يوليو اكتشفت إن منال حطت سم في عصير الفراولة وكان المفروض تديه لولادي الأربعة علشان تخلص منهم.. لما واجهتها وقالتلي إنها مش هتسيبهم يعيشوا، عقلي طار. حسيت إن الدنيا اتعمت قدامي، ضربتها وعصرت رقبتها لحد ما ماتت في إيدي... وبعدها نقلت الجثة في صندوق العربية ودفنتها في طريق دكرنس وداويت المكان

مسح رامي دمعة حارقة سقطت على خده، وتابع وهو ينظر إلى طاولة التحقيق:

أنا عارف إن القانون هيحاسبني.. بس أنا دافعت عن دم ولادي الأربعة.. أنا خسرت راندا وخسرت نفسي، ومش باقي لي غير إني أواجه مصيري

سجل وكيل النائب العام الاعتراف كاملاً، وأمر بحبس المتهم أربعة عشر يوماً على ذمة التحقيق، وإحالته إلى محكمة جنايات المنصورة بتهمة القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد، لتبدأ أولى خطوات العدالة نحو منصة الحكم الأخير

أشرقت شمس صباح جديد على مدينة المنصورة، لكنها كانت شمسًا باردة تحمل في طياتها رهبة الموقف. أمام مبنى محكمة جنايات المنصورة، كان التجمهر غير مسبوق؛ الصحفيون، المصورون، والأهالي الذين تابعت ألسنتهم تفاصيل الجريمة البشعة التي هزت المحافظة بأكملها منذ كشف أسرار ليلة العاشر من يوليو.

سارت سيارة الترحيلات الفضية المدججة بالحراسة الأمنية المشددة نحو الباب الخلفي للمحكمة. نزل منها رامي وهو يرتدي ملابس الحبس الاحتياطي البيضاء، والحديد يربط معصميه. كان رأسه منحنيًا نحو الأرض، وعيناه تتهربان من ومضات الكاميرات وصياح الفضوليين.

دُفع رامي بهدوء نحو قفص الاتهام الخشبائي المكسو بالشبك الحديدي. جلس في الزاوية المظلمة من القفص، مستندًا برأسه على القضبان الساقطة، يشعر بأن جدران المكان تطبق على أنفاسه.

في القاعة الكبرى، كانت المقاعد مكتظة عن آخرها. جلس المحامون وهيئة الدفاع، وعلى الجانب الأيسر جلس أهل المجني عليها "منال" والشرر يتطاير من أعينهم، ينظرون نحو القفص بوعيد ونقمة.

على أطراف المقاعد الخلفية، كانت تجلس "راندا". ارتدت ثوباً أسود هادئاً، وتغطت بوشاح يخفي جزءاً من وجهها الشاحب. لم تأتِ بدافع الشماتة أو الفضول، بل جاءت لتشهد نهاية رجل كان يوماً ما زوجها وسندها، الرجل الذي اختار بطوعه أن يهد بيته الدافئ بيده.

رفعت راندا عينيها نحو القفص. التقت نظراتهما لثانية واحدة عبر الحديد؛ كانت نظرة رامي ممتلئة بالانكسار والرجاء والاعتذار المكتوم، بينما كانت نظرة راندا تفيض بالحزن العميق والأسى على

ما الت إليه الأمور. أدارت وجهها بعيداً، وتشبثت بحقيبتها وهي تستمع لدقات قلبها المتسارعة.

ضرب حاجب المحكمة بصوته الرنان في أرجاء القاعة:

محككمة

وقف الجميع في خشوع تام مع دخول هيئة المحكمة الموقرة برئاسة المستشار ومستشاريه. ساد الصمت القاتل، ولم يعد يُسمع في القاعة سوى أوراق القضية التي يُقلبها القاضي بثبات.

بدأت الجلسة الأولى بنداء اسم المتهم:

المتهم رامي... اطلع قدام

وقف رامي واقترب من شبك القفص، وقال بصوت خافت مكسور:

نعم يا فندم

تلا ممثل النيابة العامة لائحة الاتهامات بنبرة حازمة هزت القاعة:

تتهم النيابة العامة المتهم رامي.. بطلانه قتل المجني عليها منال السيد عمداً مع سبق الإصرار والترصد، بأن بيت النية وعقد العزم على إزهاق روحها، وقام بكتم أنفاسها وخنقها حتى فارقت الحياة،

ثم قام بتغييب جثتها ودفنها في مكان نائٍ على طريق دكرنس لإخفاء أثر الجريمة

أنهى ممثل النيابة كلماته بطلب أقصى العقوبة المنصوص عليها قانوناً: الإعدام شنقاً.

تطلع القاضي نحو رامي، وسأله بصوت جهوري:

أنت معترف بالاتهامات الموجهة ليك يا رامي؟

أغمض رامي عينيه، واسترجع صور ولاده الأربعة، ووجه منال، وليلة السم الشيطانية. بلع ريقه وقال بنبرة واثقة رغم الانكسار:

معترف إني قتلتها يا فندم.. بس قتلتها علشان كانت هتنزل السم في بطن ولادي الأربعة يوم 10 يوليو. أنا دافعت عن أطفالي

ضجت القاعة بالهمهمات، وصرخ محامي المجني عليها مكذباً، بينما رفع القاضي يده آمراً بالهدوء، ثم أعلن تأجيل الجلسة للاستماع لشهود الإثبات وتقرير الطب الشرعي النهائي، مع استمرار حبس المتهم.

سُحب رامي مجدداً إلى ظلمات الترحيلات، مدركاً أن الحقيقة قد أُعلنت بالكامل، وأن الخناق القضائي بدأ يلتف حول عنقه تمهيداً للجلسات الحاسمة

خيّم سكونٌ مهيب على قاعة محكمة جنايات المنصورة في ثاني جلسات المحاكمة. كانت القاعة مكتظة عن آخرها، وأنفاس الحاضرين تتصاعد متوترة مع استكمال الاستماع لشهود الإثبات وتفاصيل التقارير الفنية التي تشكل اللبنات الأخيرة في بناء القضية.

في قفص الاتهام، كان رامي يجلس مطأطأ الرأس، زيه الأبيض يبدو فضفاضاً على جسده الذي أنهكه التفكير وقلة النوم. لم يعد يكترث بما يُقال حوله، بل كان يتأمل الشبك الحديدي ويتخيل حبل السيزال الضخم الذي سينتهي عنده كل شيء.

ضُرِبَت المطرقة الخشبية على المنصة، وأعلن رئيس المحكمة بدء الاستماع للشهود:

لتتفضل الشاهدة الأولى.. راندا

تسمرت الأبصار نحو الباب الجانبي للقاعة. خطت راندا بخطوات ثابتة ولكن ثقيلة، ترتدي وشاحاً أسود يلف وجهها الشاحب، وعيناها مرفوعتان بنبل وأسى. وقفت أمام المنصة وأدت اليمين القانونية بصوت واضح ترجفت أطرافه قاطعةً الصمت.

وجّه إليها القاضي الحديث بنبرة هادئة:

شاهدة الإثبات الأولى.. بصفتك الزوجة الأولى للمتهم وأم أطفاله الأربعة، احكي للمحكمة إيه اللي حصل يوم 10 يوليو، وعن طبيعة الخلافات اللي كانت بين المتهم والمجني عليها

أخذت راندا نفساً عميقاً، والتفتت لبرهة خاطفة نحو القفص، فرأت رامي ينظر إليها بعينين تفيضان بالرجاء والدموع المكتومة. عادت بنظرها للقاضي وقالت:

سيادة القاضي.. رامي طلقني بعد 10 سنين جواز ووراهم 4 أطفال، علشان يتجوز منال. رغم كل الجراح اللي سببهالي، رامي عمره ما كان راجل قاسي أو مجرم بالطبيعة.. هو كان أب حنون جداً بيكروت نفسه علشان يصرف على ولاده ويشوفهم

توقفت لثانية ومسحت دمعة سالت على خدها، ثم تابعت:

في الفترة الأخيرة قبل 10 يوليو، كان متوتر جداً.. منال كانت بتغير غيرة مرضية من اهتمامه بالأطفال. وفي يوم الجريمة، رامي جالي الشقة وكان مرعوب، سابلي الأكل والعصاير وقالي متخليش الأولاد يشربوا من العصير ده تحديداً.. اكتشفت بعدها إن العصير كان فيه سم، وقطة الشارع اللي شربت منه ماتت في ساعتها! رامي انقذ ولاده الأربعة من موت محقق كان ممتد بإيد منال

ضجت القاعة بالهمهمات، وسجل القاضي الملاحظات بدقة، ثم قال:

وهل ده يبرر إنه يقتلها ويخفي جثتها بالطريقة دي يا مدام راندا؟

:ساد الصمت، خفضت راندا رأسها وقالت بنبرة حزينة تقطع القلوب

اللي عمله جريمة بشعة والقانون لازم يأخد مجراه.. بس أنا بشهد قدام ربنا إنه عمل كده في لحظة جنون وانتقام أبوي لما حس إن ولاده كانوا هيموتوا بالسم. أنا مش جاية أدافع عن الجريمة، أنا جاية أقول الحقيقة علشان ربنا وعلشان ولادي يعرفوا إن أبوهم ضحى بنفسه واستقبل مصيره في لحظة عمى علشان يحميهم

انتهت شهادة راندا، ونزلت من منصة الشهود لتجلس في الخفاء .وهي تبكي بصوت مكتوم

ثم جاء دور المقدم يونس، الضابط المشرف على التحريات. وقف بزيّه الرسمي وبثبات رجال الشرطة، واستعرض الأدلة الفنية :والمادية أمام المحكمة

سيادة القاضي.. التحريات أثبتت وجود النية المبيتة لدى المتهم للتخلص من المجني عليها عقب اكتشافه محاولتها تسميم أبنائه. المتهم استخدم قوة غاشمة لخنقها، واستغل معرفته بالمنطقة لدفنها على طريق دكرنس وإخفاء معالم الجريمة بغسيل السيارة بالكيماويات. الأدلة البيولوجية وبصمات ال دي ان اي وتفريغ كاميرات المراقبة تؤكد ارتكابه للجريمة بكامل قواه العقلية دون إكراه

بعد ساعات من المداولات والمرافعة الساخنة بين دفاع المجني .عليها ودفاع المتهم، رفعت هيئة المحكمة الجلسة للمداولة

عاد رامي إلى القفص وهو يعلم أن أوراق القضية قد كُتبت بالكامل، وأن الجلسة القادمة ستشهد النطق بالحكم الذي سيضع نقطة النهاية في كتاب حياته

ساد قاعة محكمة جنايات المنصورة صمتٌ يزن الجبال، صمتٌ تتنفس فيه الجدران هيبة العدالة ورهبة المصير. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحاً، والقاعة مكتظة عن آخرها؛ الأعين شاخصة نحو المنصة القضائية، والأيدي متقبضة على مقاعد الخشب.

في قفص الاتهام، كان رامي يقف مستنداً بجسده النحيل على القضبان الحديدية. كان يرتدي ملابس السجن البيضاء التي بدت فضفاضة عليه بعد أن فقد الكثير من وزنه. وجهه كان شاحباً تماماً، وعيناه غائرتين تلتقطان أنفاساً متقطعة. لم يكن في خاطره في تلك اللحظات سوى وجه أطفاله الأربعة "عمر وجنى والتوأم"، ووجه "راندا" التي وقفت قبل أيام تشهد له بالرحمة رغم كل ما سببه لها من آلام.

ضرب حاجب المحكمة بصوته الرنان الذي أرجف القلوب:

محككككمة

وقف الجميع في خشوع تام. خرج أعضاء هيئة المحكمة الموقرة بخطوات هادئة ورزينة، وترأس المستشار الجلسة. فتح المظروف

المنسق بختم الدولة الرسمية، ونظر إلى الحاضرين في القاعة بنظرة نافذة، ثم حوّل عينيه نحو القفص حيث يقف رامي.

عمّ الهدوء القاعة حتى كاد صوت دقات القلوب يُسمع في أرجائها.

بدأ رئيس المحكمة بحديث يفيض بالحكمة والصرامة:

" إن المحكمة وهي تطالع أوراق هذه الدعوى، قد استقرت في يقينها واستقر في وجدانها أن المتهم قد ارتكب جريمة نكراء بحق النفس البشرية. وإن كان ما دفعه هو الغضب والانتقام لحياة أبنائه، فإن القانون والمجتمع لا يعترفان بالعدالة الفردية، ولا يستقيم بغير سيادة سيادة القانون مجتمع

توقف القاضي لبرهة، رفع أوراق الحكم، وتلا النص الرسمي بصوت جهوري هز أركان القاعة:

فبعد الاطلاع على المواد القانونية، وبإجماع آراء أعضاء المحكمة، وبعد أخذ رأي فضيلة مفتي الجمهورية... قررت المحكمة معاقبة المتهم رامي عبد الحميد، بالإعدام شنقاً، لما نُسب إليه من تهمة القتل العمد، وإحالة الدعوى المدنية للمحكمة المختصة

ضرب القاضي بالمطرقة ضربة حاسمة أعلنت نهاية القضية رسمياً: رُفعت الجلسة

صيحات وصرخات متباينة ارتفعت في القاعة؛ أهالي منال انهمرت دموعهم بين الارتياح والأسى، بينما أغمض رامي عينيه واستقبل الحكم بهدوء غريب. لم يصرخ، ولم يبكِ، بل أومأ برأسه ببطء، وكأنه كان ينتظر هذا القرار ليغسل به ذنبه وينتهي من عذاب الضمير الذي يطارده منذ ليلة العاشر من يوليو.

تقدم الملازم حسام وقوة الحراسة نحو القفص. فُتح الباب الحديدي، ووُضعت الكلبشات في يد رامي مجدداً.

وهو يُساق عبر الممر الخلفي متجهاً إلى سيارة الترحيلات التي ستنقله إلى سجن الاستئناف بانتظار تنفيذ الحكم، التفت رامي التفاتة أخيرة نحو القاعة. رأى راندا تقف بعيداً، تمسح دموعها بوشاحها الأسود وتنظر إليه بنظرة وداعٍ أخير يمتزج فيها الغفران بالحزن العميق.

ابتسم لها رامي ابتسامة باهتة ومكسورة، وتمتم بشفتين يرتجفان: سامحيني يا راندا... وخلي بالك من الأولاد

انغلقت أبواب سيارة الترحيلات الفضية بثقلٍ حاسم، وانطلقت تطوي شوارع المنصورة، تاركة خلفها حكاية عائلة دمرتها الغيرة النرجسية، ورجلاً اختار الانتقام بيده فخسر كل شيء، لتسدل الستار الأخير على واحدة من أبشع وأحزن قضايا المنصورة

مرت ثمانية أشهر على صدور الحكم النهائي في قاعة محكمة جنايات المنصورة. ثمانية أشهر كانت كفيلة بأن تهدأ الضجة الإعلامية، وتغلق الصحف أبواب التغطية حول الجريمة التي شغلت الرأي العام، ليعود الصمت ويبتلع تفاصيل الليلة الملعونة في العاشر من يوليو.

في سجن الاستئناف، داخل زنزانة مظلمة تفوح منها رائحة الرطوبة والوقت الثقيل، كان رامي يجلس على حافة الفراش المتهالك. ارتدى البدلة الحمراء المخصصة للمحكوم عليهم بالإعدام. بدت عليه علامات الشيخوخة المبكرة؛ نحل جسده، واشتعل رأسه بشيبٍ كثيف، وغارت عيناه لتصبحا نافذتين على فراغٍ لا ينتهي.

لم يعد يحسب الأيام أو ينتظر الفرج. كان يقضي لياليه في أداء الصلاة، يبتل وجهه بالدموع كلما استرجع صور أطفاله الأربعة. كانت الحقيقة الوحيدة التي تمنحه القليل من العزاء وسط ظلمات سجن الاستئناف، هي أن عمر وجنى والتوأم حمزة وياسين كبروا في أمان، بعيداً عن السم الذي كان سيقضي على طفولتهم.

في صباح يومٍ مطير من أيام مارس، كانت راندا تقف أمام بوابة شقتها الجديدة في حي هادئ بالمنصورة. كانت قد انتقلت من منزلها القديم لتبدأ حياة جديدة، خالية من ظلال الماضي وجراحه.

كانت تجلس في الصالة مع أطفالها الأربعة حول مائدة الإفطار. "عمر" أصبح أكثر نضجاً ومسؤولية، يساعد إخوته الصغار في دروسهم، و"جنى" تبتسم بصفاء، بينما يتشاجر التوأم بطفولة وعفوية.

نظرت راندا إليهم جميعاً، وابتسمت ابتسامة هادئة يملؤها الشكر والامتنان. لقد أغلقت كتاب الماضي القاسي بكل ما فيه من آلام وغدر وانتقام، واختارت أن تصنع لأبنائها مستقبلاً ناصعاً، متسلحة بالقوة والصلابة.

رن هاتفها برقمٍ غريب. أخذت نفساً عميقاً وأجابت بصوت هادئ: أيوة.. مين معايا؟

جاءها صوت مامور سجن الاستئناف، جاداً ورسمياً:

أهلاً يا مدام راندا.. بكلم حضرتك علشان أبلغك إن تنفيذ حكم الإعدام في المحكوم عليه رامي عبد الحميد قد تم في تمام الساعة السادسة من صباح اليوم.. وكان طالب من حضرتك ومن الأولاد إنكم تسامحوه، وساب لكم الرسالة دي

ساد الصمت الغرفة لثوانٍ. سقطت دمعة واحدة دافئة من عين راندا، وتنفست ببطء، ثم قالت بنبرة يمتزج فيها الرحمة بالحزن:

ربنا يرحمه ويغفر له.. إنا لله وإنا إليه راجعون

في المساء، أخرجت راندا الورقة الصغيرة التي أرسلتها إدارة السجن مع متعلقات رامي الشخصية البسيطة. كانت الكلمات مكتوبة بخط يده المرتجف:

"إلى راندا والأولاد..

أنا عارف إن الاعتذار مش هيرجع اللي فات، ولا هيمسح الوجع اللي سببته لكم. أنا اخترت طريقي ودفعت تمنه بالكامل.. بس بطلب منكم تدعولي بالرحمة، وتفتكروا دايماً إن أباطكم مكنش شرير، لكنه اختار يحميكم بالأسلوب الغلط. خدي بالك من نفسك ومنهم يا راندا.. واستسمحكم تسامحوني

طوت راندا الورقة ببطء، ووضعتها داخل صندوق ذكرياتها القديم، ثم أغلقت الصندوق وأقفلت عليه للأبد.

خرجت إلى الشرفة، ونظرت إلى سماء المنصورة الصافية بعد المطر. أدركت أن العاصفة قد انتهت أخيراً، وأن رحلة الألم قد انطوت، لتبدأ صفحة جديدة تُكتب بالحب والرحمة والعدل